الفصل الثالث

حياة ابن الرومى

ذلك كل ما عثرنا عليه من أخبار ابن الرومى متفرقًا فى كتب الأدب والتاريخ، لم نترك منه إلا نبذًا قليلة تجى فى مواضعها من فصول هذا الكتاب، وإلا الفضول الذى لا ينتظم فى مادة الترجمة ولا يزيدنا علمًا بالرجل أو بأدبه وشعره.

وكل هذا الذى عثرنا عليه وما يشابهه فلى مادته لا يجزئ فى ترجمة وافية أو فيما يقرب من ترجمة وافية. لأنه مفرط الزيادة فى مواضع ومفرط النقص فى مواضع أخرى، وبين أجزائه فجوات بعيدة لا تترك خلوًا، ولا خيلة لنا الآن فى ملئها. فلا خبر عن صباه ولا عن دراسته ولا عن أهله ولا عن أمر مفصل موثوق به من أمور معيشته، وبغير هذه العناصر الجوهرية لا تقوم ترجمة ولا يكمل تصوير رجل. وعلى هذه القلة فى الأخبار التى بين أيدينا لا نراها تسلم من الخطأ حينًا ومن المبالغة أحيانًا. فنحن - على حد المثل الذى اخترناه - كمن يؤتى له بعظام ناقصة ليبنى منها بنية جسم كامل، وفيها مع هذا عظام مدسوسة لا تدخل فى بنية الجسم الذى يراد تركيبه!

إلا أن ابن الروميم يعوضنا بعض العوض من ذلك النقص الكبير بخاصة فريدة فيه ليست فى غيره من الشعراء: هى مراقبته الشديدة لنفسه وتسجيله وقائع حياته فى شعره.

فما من أحد له شأن فى حياته إلا وجدت اسمه فى ديوانه ممدوحًا أو مهجوًا أو موصوفًا أو مردودًا عليه، وما عاب أحد مشيته أو آكله أو لبسه العمامة أو طريقته فى النظم إلا كان لذلك خبو مقيد فى ديوانه، ولم يعرف عنه أنه كان يشتهى طعامًا أو فاكهة إلا وذلك معروف من شعره قبل أن يعرف من نوادر المتحدثين عنه، ومما خامر طويته خلق محمود أو مذموم إلا شهد به على نفسه كأنه فى حرج من أمر كتمانه.

أقـر على نـفـسى بعـيـبى لأننى أرى الصدق يمحـو بينات المعايب
لؤمت لعـمـر الله فـيـمـا أتيـتـه وإن كنت من قـوم كـرام المناصب
ولابد مـن أن يلؤم المـرء نارعًـا إلى الحـمـا المـسنون ضـربة لازب

على أنه يشـهد بخلة الكذب على نفـسه كمـا يشهـد لها بهـذا الصدق المقرون بإظهار العيوب، فيقول فى أصرح عبارة:

وإنـى لذو حـلـف كـذاب إذا مـا اضطررت وفى الأمر ضـيق
وهل مـن جناح عـلى مـرهق يدافـع بالـله مـا لا يطـيق؟!

ويقول فى تسجيل حرصه وجبنه:

وأصـبـحت فى الأثراء أزهد زاهد وإن كنت فى الأثـراء أرغب راغب
حـريصًا جـبانًا أشـتهى ثم انتـهى بلحظى جنـاب الرزق لحظ المراقب
أخاف على نفـسى وأرجو مـفازها وأسـتار غـيب الله دون العـواقب
ألا من يرينى غـايتى قبل مـذهبى ومن أين؟ والغـايات بعـد المذاهب

ويتوهم أن أناسًا سيعيبون مجونه فى مجلس الشراب ويرون أنه لا يليق بما يدعى من العلم والوقار فيسيبهم إلى ذاك ويقول:

وأرى أن مـعـشـرًا سـيـقـولو ن سـخـيف من الـرجـال لعـوب
أين عنـه وقـار مـا يدعـيـه من عـلوم لحـاملهـا قـطوب
ولعـمـرى أن الحكيـم وقـور ولعـمـرى أن الكـريم طروب

ويحس دبيب الشيـخوخة فى مـآرب نفسه وخلجـات قلبه فيـخشى أن يفوته تسجيل ذلك كأنه محاسب عليه معاقب على تفويته، فيقول لقرائه:

اكتـهلت همتـى فأصبـحت لا بهـ ـج لاشـىء كـنـت أبـهـج بـه
وحـسب من عـاش من خلوقـتـه خلـوقـه تـعـتـريه فـى أربه

وهكذا فى الصغائر والكبائر، وفى وقائع العيش وخواطر السريرة، وفيما يلقى به الناس به الله.

وقد تجد فى الشعراء من تتعرف وقائعه من قراءة شعره، ومن تستطبع خلائقه من ثنايا كلامه، ولكن ابن الرومى لا يحوجك إلى التعرف والاستطلاع لأنه يغنيك عن الملاحظة بما يقوم به هو منم ملاحظة نفسه وتقييد شوادر فكره وهمسات فؤاده وسبحات أحلامه. فكأنما هو رقيب على بواطنه وظواهره، وكأنما أعطى نفسه ليجربها ويقيد تجاربه فيها! فكان ديوان شعره كناشة الرقابة أعدها ليحصى فيها كل ما يحصيه الرقيب الحسيب.

هذه الخصلة فى الشاعر تعوضنا كثيراً ما ضيعته التواريخ من حوادثه وأوصافه. فعلى ما جاء فى ديوانه نعتمد فى تصحيح الأخبار المسطورة وتكميلها على وجه نستوفى به الترجمة جهد المستطاع، فهو حسبك من مترجم لحياته وصافه لحقيقته، ولولا أن الشعر لا يسجل الأرقام ولا يتقصى كل ما فات الشاعر قبل أن يصبح شاعراً لكان هو حسبك من رواية لا تحتاج بعده إلى تدوين رواية . .

أصله ونشأته

"ولد أبو الحسن على بن العباس بن جريح الرومى يوم الأربعاء بعد طلوع الفجر لليلتين خلتا من رجب سنة إحدى وعشرين ومائتين ببغداد فى الموضع المعروف بالعقيقة ودرب الختلية فى دار بإزاء قصر عيسى بن جعفر بن المنصور".

وقد رجعنا إلى كتب المضاهاة بين التاريخ الهجرى والتاريخ الميلادى والقبطى فوجدنا فى كتاب "التوفيقات الإلهامية" لصاحبه محمد مختار باشا أن أول رجب من تلك السنة يوافق يوم الثلاثاء الذى يقع فى العشرين من شهر يونيو سنة ٨٣٥ ميلادية، وفى السادس والعشرين من شهر بؤونة سنة

٥٢٢ قبطية. فاليوم الثانى من رجب هو يوم أربعاء وهو مما يحقق صحة تاريخ المولد الذى لم يختلف فيه مؤرخوه

وكان ابن الرومى مولى لعبد الله بن عيسى بن جعفر بن المنصور، وجعفر هو الابن الثانى للمنصور لم يتول الملك ولم تكن له ولاية عهد ولا كانت بعده لأحد من ولده الذين نشأ فيهم الشاعر.

ولا يدع ابن الرومى مجالا للشك فى أصله الرومى فإنه يذكره ويؤكده فى مواضع شتى عن ديوانه كقوله:

ونحن بنو اليونان لنا حجى ومجد وعيدان صلاب المعاجم

وقوله فى مدح بعض مواليه من بنى العباس:

ومتى اختل ابن روميكم فأياديكم حرى عنه قمن

وقوله فيهم:

مولاهم وغذى نعمتهم والروم، حين تنصنى، أصلى

وغير ذلك كقوله:

قد تحسن الروم شعراً ما أحسنته العريب

و: آبائى الروم توفيل وتوفلس ولم يلدنى ربعى ولا شبث

و: يا بنى السمرى قد أزمتكم حرمة الروم ويحكم فاحفظونى

و: إذا ما حكمت الروم أهلى فى كلام مصرب كنت أهلا

و: إذا الشاعر الرومى أطرى أميره فناهيك من معرى وناهيك من مطر

و: إن لم أزر ملكا أشجى الخطوب به فلم يلدنى أبو الأملاك يونان

بل إن تعددت فلم أحسن سياستها فلم يلدنى أبو السواس ساسان

أو كقوله وهو كما تقدم فى نسب أبيه وأمه:

كـيف أغـضى على الدنيـة والفـر س خـؤلـى الروم أعـمـامى

واسم جده مع هذا جريح أو جورجيس وهو اسم يونانى لا شـبهة فيه. فلا معنى إذن للشك فى أصله ولا ينبغى الالتـفات إلى من قال أنه سمى ابن الرومى لجماله فى صباه.

أبوه

ولم يرد لأبى الشاعر ذكـر خاص فى ديوانه إلا حيث يقول من قـصيدة بائية يذكر فيها مناقبه ومناقب آبائه:

وكم من أب لى ماجـد وابن ماجد له شرف يربى علـى الشرف المربى

إذا أمطرت كـفـاه بالبـذل نورت له الأرض واهتزت رباها من الخصب

وإلا حيث يقول:

شـاد لى السـور بعـد توطئـه الأس أب قـال: أنت لـلشـرف

والبيتان الأولان فخر يراد به وقع الكلام واستيفاء باب من أبواب الشعر التى كان الشعراء ينظمون فيهـا من نسيب ومدح ورثاء وهجو وفخر ونحوها، فليس فيـه خبر ولا رواية ولكنه معـالجة فنية كهـذه الموضوعات التى يعـالجها الشاعر المعاصر لتصوير الأطوار النفسية ووضع الأماثيل على لسان الحال ثم لا يعنى بها الأخبار عن نفسه وأن جاءت بضمير المتكلم. وقد كان الشاعر القديم يأبى أن يخلو ديوانه مـن باب من أبواب الشـعر المعـروفـة ويأنف أن يظن به التقصـير فى واحد منها، فهو لهـذا يشبب ويفخر ويقول فى الفخـر ما يهول وقعه لا ما يصدق خبره! والفـخر على هذا الاعتبار عمل فنى يؤخذ على هذا المعنى ولا يستمد منه التاريخ أو يرجع إليه فى تقرير الوقائع.

والبيت الثـالث يلحق بهذين البـيتـين فى الفخر والإشـادة بالنسب من ناحيـة "الفن" لا من ناحيـة "التاريخ". إلا أننا نـستخلص منـه أن أباه كان يتوسم فـيه الذكـاء ويرجو أن يشرف بعلمـه وأدبه كمـا شرف بالعلم والأدب

كثيرون من أبناء الموالى وارتفعوا إلى مناصب الوزارة من طريق الكتابة والمسجالة ومعاشرة العظماء المتأدبين، وكان أبوه صديقًا لبعض العلماء والأدباء منهم محمد بن حبيب الرواية الضليع فى اللغة والأنساب، فكان الشاعر يختلف إليه لهذه الصداقة وكان محمد بن حبيب يخصه لما يراه من ذكائه وحده ذهنه، وحدث الشاعر عنه فقال "أنه كان إذا مر به شيء يستغربه ويستجيده يقول لى يا أبا الحسن ضع هذا فى تامورك[1]".

ونرجح أنه فقد أباه وهو صغير لم يبلغ، لأنه لم يرثه حين وفاته مع أنه قال الشعر وهو صبى فى المكتب[2]، ولأنه كان يسمى أخاه "والدًا" كأنما كان عليه فضل تربية كفالة.

أمه

وقد علمنا أنه أمه كانت فارسية من قوله "الفرس خؤلى والروم أعمامى" وقوله "فلم يلدنى أبو السواس ساسان "بعد أن رفع نسبه إلى "يونان" من جهة أبيه، ولا يخفى أن انتماءه إلى ساسان لا يقصد به أنه من أبناء الملوك الساسانيين وإنما هو كقول المصرى اليوم أنه من أبناء الفراعنة، ولا

---

(١) معجم الأدباء الجزء السادس ص ٤٧٤.

(٢) جاء فى ديوانه أنه قال الأبيات الآتية فى هجو غلام هاشمى يسمى جعفر وهى أول ما قاله:

أجعفر حزت جميع العيو ... ب فما فيك من خلة تمدح
كلامك أكذب من يلمع ... يخيله بالضحى صحصح
وحلمك أطيش من ريشة ... وروحك فى هضبة أرجح
ووجهك من وجه يوم الفر ... اق فى مقلتى عاشق أقبح
فما فى حياتك لى مفرح ... ولا فلى مماتك لى مترح

ونستغرب نحن أن تكون هذه الأبيات أول ما قال ولكنا لا نستغرب أن يقولها فى المكتب لأنهم كانوا يمكثون فيه حتى يحفظوا القرآن وكان ابن الرومى شاعرًا مجيدًا وهو دون العشرين.

علاقة فى النسب بينه وبينهم وربما كانت أمه من أصل فارسى ولم تكن فارسية قحا لأبيها وأمها وهذا هو الأرجح، لأن عمله بالفارسية - كما سأتى - لم يكن علم رجل نشأ فى حجر أم تتكلم هذه اللغة ولا تحسن الكلام بغيرها.

وماتت أمه وهو كهل أو مكتهل كما يقول فى رثائها:

أقول - وقد قالوا: أتبكى كفاقد ... رضاعًا، وأين الكهل من راضع الحلم

هى الأيام يا للناس جرعت فقدها ... ومن بيك أما لم تدم قط لا يدم

وكانت تقية صالحة رحيمة كما يؤخذ من أبياته فى رثائها:

لقد فجعت فيك الليالى نفوسها ... بمحييه الأسحار حافظة العتم

ولم تخطئ الأيام فيك فجيعة ... بصوامة فيهن طيبة الطعم

وفات بك الأيتام كناقة ... دفىء عليهم ليلة القر والشيم

وجعلنا وأفرادك غير فريدة ... من البر والمعروف والخير والكرم

فلا تصدمنى أنس المحل فطالما ... عكفت فأست المحاريب فى الظلم

وجزع عليها جزعًا شديدًا ينم عليه قوله:

إلا من أراه صاحبًا غير خائن ... إلا من أراه مؤنسًا غير محتشم

إلا من تلينى منه كل حسالة ... أبر برت بذى شمعت يشلم

إلا من إليه اشتكى ما ينوبنى ... فيفرج عنى كل غم وكل هم

نيا ناظرى يا أم عن كل منظر ... وسمعى عن الأصوات بعدك والنغم

وأصبحت الآمال - مد بنت والمنى ... غوادر عندى غير وافية الذمم

وصارمت خلانى وهم يصلوننى ... وقد كنت وصال الخليل وإن صرم

وآنسنى فقد الجليس وأوحشت ... مشاهدة نفسى، ولم أدرما اجترم

وكانت لها أخت ماتت قبلها، فهو يقول إذ يرثيها له كان له جناحان من عطفها وعطف أمه

أرانى وأمى بعد فقدان أختها ... وإن كنت فى رفة بها وصلاح

كفرخ قطاه الدو بان جناحه ... قباء إلى حصن بفرد جناح

أخوه

ويظهر أن أويه لم يعقبا من البنين غيره وغير أخيه محمد المكنى ابا جعفر، وهو أكبر منه لأنه يقول: "بأخى بل بوالدى بل بنفسى" وهو يتفجع بذكراه، وشقيقه لأنه يقول فى موضع آخر:

بأخ شقيق بعد أم برة ... بالأمس قطع منهما أقرانه

ويذكره بمثل ذلك فى غير موضع.

وكل ما وصل إلينا عن هذا الأخ قصة جاءت فى ديوان الشاعر نعلم منها أنه كان أديبًا "وكان يكتب لرجل فعزل بعد مدة، بعبث به آل أبى شيخ أصدقاؤه وقالوا: عزلة شؤمك، وكان بين آل أبى شيخ وابن سعد أن مؤدب المؤيد مودة فخرجوا إليه فى أيام المؤيد فأقاموا مدة، وكان من المؤيد ما كان وتشتت أصحابه فكتب إليهم أبو جعفر يولع بهم ويقول: أنا شؤمى عزال وشؤمكم قتال وسيأتيكم فى هذا نظم على بن العباس، يعنى أخاه، ومن ذلك النظم قوله:

أنا شؤمى فيما تقولون عزا ... ل ولكن شؤمكم قتال

بالذى أدرك المؤيد منكم ... وابن سعدان تضرب الأمثال

زرتموه والصالحات عليه ... مقبلات فأدبر الإقبال

أن شؤمًا حلت به عقدة المـ ... ـلك لشؤم تزول منه الجبال

ونعلم من هذه القصة أن محمدًا عاش إلى سنة اثنتين وخمسين ومائتين

وهى السنة التى قتل فيها المؤيد، وكان ابن الرومى فى تلك السنة قد بلغ الحادية والثلاثين. فالأرجح أن محمداً قد عاش بعدها بضع سنوات، لأن الشاعر ذكره فى رثاء أمه حيث قال: "أقاسى وصنوى منه كل شديدة" أى ذكره وهو كهل جاوز الحادية والثلاثين. لأنه كهلا حين ماتت أمه كما مر بنا فى رثائها، والحادية والثلاثون ليست بسن كهولة إلا أن يكون لاموا الشاعر لفرط جزعه على أمه قد تعمدوا تكبير سنه لاستيجاب الملام

ونرى فى موضعين من الديوان أبياتًا يستعطف بها الشاعر لأخيه رئيسًا غضب عليه، وكأن أخاه مات وهو يعمل فى خدمة عبيد الله بن عبد الله بن طاهر أحد أركان بيت بنى طاهر المشهور فى دولة بنى العباس. فإن الشاعر يقول من قصيدة يخاطب بها عبيد الله ويذكر أخا شقيقًا مات بعد أم برة:

فليحيه الملك الهمام فلم يفت محياه قدرته ولا سلطانه
وحياته لى ان أقوم مقامه وأسد من دار الأمير مكانه

فالشاعر يتكلم عن نفسه على ما نرجحه كثيراً ويطلب أن يحل فى دار عبيد الله محل أخيه[1]. والمجزوم به بعد هذا كله أن محمداً مات بعد موت المؤيد وأنه كان على شىء من الأب ومعرفة الكتابة وحب العبث والدعابة.

---

(١) نقول هذا ترجيحًا لا تحقيقًا لأن القصيدة مبدوءة بهذا البيت:

أمسى دمشقى الأمير ودهره ملق عليه بركة وجرانه

فما معنى تلقيت ابن الرومى نفسه بالدمشقى فى مطلع القصيدة؟ أكان ذلك لقبال عند الأمير؟ يجوز. وتكون النسبة إلى الدمشقى وهو الرجل السريع اليدين المنجز عمله، ولكننا لا نعلم من أخباره ما يؤيد هذا التقليب، وهناك دمشقى صديق لابن الرومى هو الأديب "أبو العباس أحمد بن القاسم بن الخليل الدمشقى" عاتبه الشاعر لتعاليه عن معونته فقال:

يا أيها المتعالى عن معونتنا غنى بما فيه من ذهن ومن أدب
لو استعنت بنفس غير أنفسنا أو غير نفسك قابلناك بالغضب=

وقد حزن عليه ابن الرومى حزنًا طويلا ملحًا بقى يعاوده إلى آخر أيامه، فلم يفتأ ذكره ويعيد ذكره فى شعره إذا مدح أو عتب أو استعبر، ومن ذاك أنه قال يرثيه:

وتسئلينى الأيام لا أن لوعتى ... ولا حزتى كالشىء ينسى فيعزب
ولكن كفانى مسليًا ومعزيًا ... بأن المدى بينى وبينك يقرب

وقال لصاحب كان يحسده ويغرى به:

أيها الحاسدى على صحبتى العسـ ... ـر وذمى الزمان والإخوانا
ليت شعرى ماذا حسدت عليه ... أيها الظالمى إخائى عيانًا
أعلى أننى ظمئت وأضحى ... كل من كان صاديًا ريانًا
أم على إننى ثكلت شقيقى ... وعدمت الثراء والأوطان

وقال وهو يعاتب القاسم بن عبيد الله:

أنا ذاك الذى سقته يد السقـ ... ـم كئوسًا من المراد رواء
ورأيت الحمام فى الصور الشنـ ... ـع، وكانت لولا القضاء فضاء
ورماه الزمان فى شقة النفـ ... ـس فأصمى فؤاده أصماء

وقد مرض واشتد مرضه بعد موته فهو يقول حين أجلى عن مسكنه:

فيه عافانى الإله من الشـ ... ـكووفك البلاء عنى كبوله
بعد جهد حملت سنة ضروبًا ... ليس أنقاهن بالمحمولة
ومصاب يشقه النفس منى ... ضمن الجسم سقمه ويحوبه

=لكن غنيت بنفس لا كفاء لها ... فى النظم والنثر من شعر ومن خطب
ولا ملام على مرتاد مصلحة ... باع اللجين بضعفيه من الذهب

فهل القصيدة موضوعة على لسان هذا الدمشقى؟ يجوز كذلك. ولكنه جد بعيد.

ولم يبق لابن الرومى بعد موته ذلك الأخ الوحيد أحد يعول عليه من أهله أو من يحسبون فى حكم أهله، إلا أناس من مواليه الهاشميين العباسيين كانوا يبرونه حينًا ويتناسونه أحيانًا، وكان هو لعهد الهاشميين الطالبيين أحفظ منه لعهد الهاشميين العباسيين كما يظهر مما يلى. أما ابن عمه الذى أشار إليه فى قوله:

لى ابن عم يجر رالشر مجتهد ... إلى قدمًا، ولا يصلى له نارًا

يجنى، فأصلى بما يجنى، فيخذلنى ... وكلما كان زندًا كنت مسعارًا

فلا ندرى أهو ابن عم لح أو ابن عم كلالة. ومبلغ ما بينهما من ثلة المودة ظاهر من البيتين.

أولاده وزوجته

ورزق ابن الرومى ثلاثة أبناء: هم هبة الله ومحمد وثالث لم يذكر اسمه فى ديوانه، ماتوا جميعًا فى طفولتهم ورثاهم بأبلغ وأفجع مارثى به والد أبناءه، وقد سبق الموت إلى أوسطهم - محمد - فنظم فى رثائه الدالية المشهورة التى يقول منها:

توخى حمام الموت أوسط صبتى ... فلله كيف اختار واسطة العقد

على حين شمت الخير فى لمحاته ... وأنست من أفعاله أية الرشد

ومنا فى وصف مرضه:

لقد قل بين المهد واللحد لثه ... فلم ينس عهد المهد أو ضم اللحد

ألح عليه النزف حتى أحاله ... إلى صفرة الجادى عن حمرة الورد

وظل على الأيدى تساقط نفسه ... ويذوى كما يذوى القضيب من الزند

ويذكر فيها أخويه الآخرين.

محمد ماشئ توهم سلوة ... لقلبى، إلا زاد قلبى من الوجد

أرى أخويك بالباقين كليهما يكونان للأحزان أورى من الزند
إذا لعبا فى ملعب لك لذعًا فؤادى بمثل النار عن غير ما عمد
فما فيهما لى سلوة بل حزازة يهجانها دونى وأشقى بها وحدى

فابنه محمد إذن قد مات منزفًا فى حياة أخويه الصغيرين وهو فيما بين الرابعة والخامسة، لأنه يقول فيه "لقد قل بين المهد واللحد لبثه" ويقول: "وظل على الأيدى تساقط نفسه" وإنما يحمل الطفل المريض على الأيدى فى مثل تلك السن، ولا يحتمل أن يكون أصغر من ذلك لأن أخاه الصغير كان فى سن اللعب، وهى لا تكون قبل الثالثة ونحوها

أما ابنه هبة الله فقد ناهز الشباب على ما يفهم من قوله فى رثائه:

يا حسرتا فارقتنى فتنا غضا، ولم يثمر لى الفنن

والبيت من قطعة مريرة دفينة الحزن أشبه بالنشيج منها بالنحيب يقول فيها:

ابنى أنك والعزاء معا بالأمس لف عليكما كفن
تالله لا تنفك لى شجنا يمضى الزمان وأنت لى شجن
ما أصبحت دنياى لى وطنا بل حيث دارك عندى الوطن

***

أولادنا أنتم لنا فتن وتفارقون فأنتم محسن

وكأنها لم تشف لوعته أو كأنه لام نفسه على حزنه الصامت: فعاد يقول وهو موزع القلب بين الصبر والجزع:

شجى أن أروم الصبر عنك فيلتوى على، ولؤم أن يساعدنى الصبر
فيا حزنى ألا سلو يطيعنى ويا سوأتى من سلونى، أنها غدر

وفى الديوان أبيات بائية يرثى بها ابنا لم يذكر اسمه، وهى هذه الأبيات:

حماه الكرى هم سرى فتأوبا ... فبات يراعى النجم حتى تصوبا

أعينى جودًا لى فقد جدت للثرى ... بأكثر مما تمنعان وأطيبا

بنى الذى أهديته أمس اللثرى ... فظله ما أقوى قنانى وأصليا

فإن تمنعانى الدمع أرجع إلى آسى ... إذا فترت عنه الدموع تلهبًا

ويبعد أن تكون رثاء لابنه الأكبر هبة الله، فهى على الأرجح رثاؤه لأصغر أبنائه الذى لم يذكر اسمه، ولا ندرى هل مات قبل أخيه أو بعده. ولكن يخيل إلينا بالمقابلة بين هذه المراثى أن الأبيات البائية كانت آخر ما رثى به ولدًا لأنها تنم عن فجيعة رجل راضه الحزن على فقد البنين حتى جمدت عيناه ولم يبق عنده من البكاء إلا الأسى المتلهب فى الضلوع وإلا العجب من أن يكون قد عاش وصلبت قنايه لكل هذه الفجائع. وقد كان رثاؤه لابنه الأوسط صرخة الضربة الأولى ففيها ثورة لاعجة تحس من خلل الأبيات، ثم حل الألم المرير محل الألم السوار فى مصيبته الثانية فوجم وسكن واستعبر، ثم كانت الخاتمة فهو مستسلم يعجب للحزن كيف لم يقض عليه ويحس وقده المصاب فى نفسه ولا يحسه فى عينيه

ولقد غشيت غبرة الموت حياته كلها وماتت زوجته بعد موت أبنائه[1] جميعًا فتمت بها مصائبه وكبر عليه الأمر وقل فيه العزاء فهو يقول:

عينى سحا ولا تشحا ... جل مصابى عن العزاء

ورثاها فى موضع آخر يقول فيه"

فاستغررا درة الشئون على ... بدركما، بل على قضيبكما

(١) نكاد نجزم بهذا لأنه لم يشرفنى رثائه إياها إلى ولد تركته مع استقصائه كل معنى يقال فى موضوع، وذلك أحق شىء بأن يذكر فى رثاء زوجة.

ويلوح منه أنها ماتت وهى فتية توصف بما توصف به الفتيات ويغلب أنه هجر الزواج بعدها زمنًا فلم يتزوج إلا فى أواخر عمره إذا صح ما استخلصناه من بعض أبياته ونقول ما استخلصناه لأننا لا نعتمد على خبر صريح فى أمر زواجه الآخر، ولكننا لابد أن نقف فى هذا الصدد عند أبيات قالها للقاسم بن عبيد الله وهى:

وهب خادمًا لم يوف نعماك شكرها ... فبدل عرف عنده بنكير

فما ذنب طفل كان تسبيب كونه ... رجاؤك، يا مرجو كل فقير

أيحسن ان جر العيال رجاؤكم ... وخاب ندائكم، وهو خبر خفير

غياثكم يا آل وهب فإننى، ... وإن لم أكن أعمى، أضر ضرير

وأبيات أخرى لعل المخاطب بها هو القاسم أيضًا وهى:

منعت الكفاف الذى لم تزل ... تجود به كفك الموسعه

فإن كنت مسلم ذى حرمة ... لقول أعاديه. ما أضيعه!

فعجله بالسيف كى يستر ... يح، إن كنت من مثله فى سعه

أتسلمنا للردى ستة ... وقد كنت ترحمنا أربعه؟

لابد أن نقف عند هذه الأبيات ولابد أن نفهم منها أنه تزوج فى أواخر عمره ورزق ولدًا فأصبح أهل بيته ستة بعد أن كانوا أربعة، ولا يمكن أن تكون الإشارة فى الأبيات الرائبة إلى كفله الأول وزوجته الأولى. لأن الأبيات قيلت للقاسم بن عبيد الله، والقاسم ولد حوالى سنة خمس وخمسين ومائتين، فلا يبلغ من السن المبلغ الذى يرجى فيه ويمدح إلا حوالى سنة خمس وسبعين، ولا يعقل أن ابن الرومى بقى عزبًا إلى تلك السنة ثم تزوج زواجه الأول ورزق أولاده الثلاثة.

وكيفما كانت جلية القول فى هذه الأبيات فقد كانت له زوجة عندها هجا عمرًا حاجب القاسم، لأنه قال فيه:

أيركب عمرو حوله من يحفه ويعوزنى قوت أعول به عرسى؟

ولا يكون ذلك قبل سنة خمس وسبعين ونحوها. كذلك لا شك فى أنه لما قارب الستين لم يكن متزوجًا لأنه يقول فى قصيدة نظمها فى نحو تلك السن.

ومبيتى بلا ضجيع لدى القمر وللوغد شادن مخضوب

ولم يذكر أحد من مؤرخيه - ولا الناجم الذى حضر وفاته - أنه ترك ولدًا بعده، فإذا صح ما استخلصناه من أمر زواجه الثانى فهناك فجيعة أخرى أصيب بها فى ولد جديد[1] قبل وفاته، فمات ولا زوج له ولا بنون

تعليمه

ذلك كل ما استطعنا أن نجمعه من الأخبار النافعة عن نشأة الشاعر وأهله. ولا محصل للبحث فى المصادر التى بين أيدينا عن أيام صباه وتعليمه ومن حضر عليهم وتتلمذ لهم من العلماء الرواة. فإن هذه المصادر خلو مما يفيد فى هذا المقام، إلا ما جاء عرضًا فى الجزء السادس من الأغانى حيث

(١) قضى ابن الرومى زمنًا لا يتزوج حتى كان يسأل "... لم لا أتزوج" كما جاء فى أبيات له جيمية، ومن أقواله فى هذه المعنى

أنا غيران ولا زوجة لى بل على النعمة عند ابن خلف ومنها

كيف ترضى الفقر عرسًا لامرئ وهو لا يرضى لك الدنيا أمه

ومنها ما كتب باء صديق له يسمى إبراهيم

يا سمى الخليل إياك أدعو دعوة يممت سميعًا مجيبًا

أمه من إماء طولك أجمع ت على نقلها إلى قريبًا

ما تزوجتها على غير تأميل لك فانظر أجائز أن أخيبا

وقليل النوال فى هذه الحا لة مما أراه شيئًا عجيبًا

وقد يكون بعض هذا الزمن مضى قبل زواجه الأول، ولكننا رأينا كذلك أنه قضى زمنًا فى أواخر عمره وهو أعزب.

يروى ابن الرومى عن "أبى العباس ثعلب عن حماد بن المبارك عن الحسين بن الضحاك" وحيث يروى فى موضع آخر "عن قتيبة عن عمرو السكوتى بالكوفة عن أبيه عن الحسين بن الضحاك" فيصح أن تكون الرواية هنا رواية تلميذ عن أستاذ، لأن ثعلبًا ولد سنة مائتين فهو أكبر من الشاعر بإحدى وعشرين سنة، أما قتيبة "والمفهوم أنه ابو رجاء قتيبة بن سعيد بن جميل الثقفى المحدث العالم المشهور" فجائز أن يكون ممن أملوا عليه وعملوه لأنه مات وابن الرومى يناهز العشرين.

وقد مر بنا أنه كان يختلف إلى محمد بن حبيب الراوية النسابة الكبير، وسنرى هنا أنه كان يرجع إليه فى بعض مفرداته اللغوية فيذكر شرحها فى ديوانه معتمدًا عليه: قال بعد هذا البيت:

وأصدق المدح مدح ذى حسد ملآن من بغضه ومن شنف

"قال لى محمد بن حبيب: الشنف ما ظهر من البغضة فى العين" وأشار إليه بعد بيت آخر وهو

بانوا فبان جميل الصبر بعدهم فللدموع من العينين عينان

إذ فسر كلمة "عينان" فروى عن ابن حبيب أنه قال: "عان الماء يعين عينًا وعينانا إذا ساح".

فهؤلاء ثلاثة من أساتذة ابن الرومى على هذا الاعتبار، ولا علم لنا بغيرهم فيما راجعناه. وحسبنا مع هذا أن الرجل - كيفما كان تعليمه وأيا كان معلموه - قد نشأ على نصيب واف من علوم عصره وساهم فى القديم والحديث منها بقسط وافر فى شعره، فلو لم يقل المعرى أنه كان يتعاطى الفلسفة والمسعودى أن الشعر كان أقل آلاته لعلمنا ذلك من شواهد شتى فى كلامه. فهى هناك كثيرة متكررة لا يلم المتصفح ببعضها إلا جزم باطلاع قائلها على الفلسفة ومصاحبة أهلها واشتغاله بها حتى سرت فى أسلوبه وتفكيره،

وما كان متعلم الفلسفة فى تلك الأيام يصنع أكثر من ذلك ليتعلمها أو ليعد من متعلميها. فأنت لا تقرأ لرجل غير مشتغل أو ملم بالفلسفة والقياس المنطقى والنجوم كلامًا كهذا الكلام:

لما تؤذن الدنيا به من صروفها ... يكون بكاء الطفل ساعة يولد
وإلا فما يبكيه منها وأنها ... لا رحب مما كان فيه وأرغد
أو: سأمدح بعض الباخلين لعله ... إذا أطرد المقياس أن يتسمحا
أو: غاب تحت الحس حتى ... ما يرى إلا قياسًا
أو: إذا احتج محتج على النفس لم ... تكد على قدر يمنى لها تتعتب
أو: يا باطلا أو همتنيه مخايلة ... بلا دليل ولا تثبيت برهان
أو: رجوت صلاح القبل بالبعد فانبرى ... لنا ظلمكم فاستفسد القبل بالبعد

أو ما قاله فى أصحاب الجدل:

لذوى الجدال إذا غدوا لجدالهم ... حجج تضل عن الهوى وتجور
وهى كآنية الزجاج تصادمت ... فهوت، وكل كاسر مكسور
فالقاتل المقتول ثم لضعفه ... ولوهيه، والأسرار المأسور

أما ما قاله فى هجاء صاعد وابنه أبى عيسى ومنه:

وثنى بابنه السفيه المعنى ... بأساطير رسطاليس
والذى لم يصخ بأذنيه إلا ... نحو ذوثوريوس أو واليس[1]
عاقدًا طرفه ببهرام أوكيو ... أن أو هرمس أو البرجيس
أو بشمس النهار والبدر والزهـ ... ـرة عند التثليث والتسديس
واجتماعاتهن فى كل قيد ... وافتراقاتهن عن كل قيس

(١) راجع اسمى ذروثيوس ووواليس فى أخبار الحكماء للقفطى

فهو فى الأبيات الأخيرة يذكر الفلاسفة والرياضيين بأسمائهم المعروفة فى الكتب المنقولة، ويذكر أكثر الكواكب بأسمائها الفارسية، ويذكرها فى غير هذه الأبيات بأسمائها المعروفة عند العرب وخصائصها التى كانت معروفة عند الكلدانيين والفرس الأقدمين ونقلها منهم اليونان ولا تزال مشهورة إلى اليوم فى آداب الغربيين فيقول فى مدح إسماعيل بن بلبل وكان كاتبًا قائدًا:

وافى عطارد والمريخ مولده فأعطيناه من الحظين ما اقترحا

لأن عطارد كان رب الكتابة والحكمة والفنون عندهم والمريخ كان رب الحرب والشجاعة:

ويقول فى مدح عبيد الله بن سليمان بن وهب:

إذا صبت زهرته صبوة قال له هرسمه: هندسى

وإن عدا هرمسه عده قالت له زهرته: نفسى

والزهرة هى ربة الجمال واللهو، وهرمس هو اسم عطارد عند الفرس وهو رب الكتابة كما تقدم.

يعنى أن ممدوحه يميل مع اللهَو والجمال فتهيب به الحكمة والمعرفة، ويرهق نفسه بهذه فتدعونه الزهرة إلى التنفيس . .

وربما أعطاك شواهد مساهمته فى معازف زمانه كلها من أساطير مأثورة وعلوم قديمة وحديثة فى بيت واحد، كقوله يداعب المرثدى حين أخلف وعده فى هدايا السمك:

الحوت حوت الأرض أم حوت يونس لك الخير أم حوت السماء أروم؟

فحوت الأرض هو الحوت الذى تزعم الأساطير أنه يحمل الثور الكبير الذى يحمل الأرض، وحوت يونس هو الحوت الذى ابتلع النبى يونس وجاء نبأه فى القرآن، وحوت السماء هو البرج المعروف باسم الحوت.

وبين أيدينا خبران عن اقتناء الكتب إذا لاحظنا قلة أخباره فى كل شأن من شئونه علمنا أنهما يدلان على شىء كثير: أحدهما أتى به المعرى فى رسالة الغفران وفيه أنه "كان يتعاطى الفلسفة واستعار من أبى بكر السراج كتابًا فتقاضاه به، فقال ابن الرومى: لو كان المشترى حدثًا لكان عجولا".

والخبر الثانى مأخوذ منم ديوانه إذ يعاتب أبا الحسين محمد بن المعلى لتضييعه كتابًا استعاره منه فيقول له من قصيدة:

منحتك مصباحًا فأعشاك ضوءه وقد كان ظنى أنه سيريكا

وخبران من هذا النوع فى حياة قليلة الأبخار يشفان - مع شواهد شعره الكثيرة - عن شغف دائم بالتحصيل ومدارسة العلوم إلى ما بعد سن الكهولة، فإنه لا يقول "لو كان المشترى حدثًا لكان عجولا" ألا وهو كهل أو شيخ جاوز الكهولة.

ومن الحق له وللتاريخ ألا نهمل أخباره عن نفسه فى هذا الباب للإبانة عن منزلته من العلم والدراسة كلما كانت هذه الأخبار مطابقة لما نعرف من مجمل حاله. ففى بعض شعره يقول عن نفسه أنه أدمن الدرس ورفض المكاسب فى سبيل أدمانه كما جاء فى هذه الأبيات:

أن امرءًا رفض المكاسب واغتذى يتعلم الآداب حتى أحكما
فكسا وحلى كل أروع ما جد من حر ما حاك القريض ونظما
ثقة برعى الأكرمين حقوقه لاحق ملتمس بألا يحرما

وأظهر من ذلك قوله فى الهمزية الكبيرة للقاسم:

أن أكن غير محسن كل ما تطلـ ـب أنى المحسن أجزاء
فمتى ما أردت صاحب فحص كنت ممن يشارك الحكماء
ومتى ما أردت قارض شعر كنت ممن يساجل الشعراء

ومتى ما خطبت منى خطيبًا جل خطبى، ففاق بى الخطباء
ومتى حاول الرسائل رسلى بلغتنى بلاغتى بالبلغاء

وأظهر من هذا وذاك أبياته التى يمدح بها أبا سهل النوبختى ويذكره فيها مودة آل النبى واشتغالهما معًا بالتفكير فى إدحاض شبهات الفلاسفة والمتكلمين، ومنها:

ويدمج أسباب المودة بيننا مودتنا الأبرار من آل هاشم
وإخلاصنا التوحيد لله وحده وتذبيبنا عن دينه فى المقاوم
بمعرفة لا يقرع الشك بأبها ولا طعن ذى طعن عليها بهاجم
وأعمالنا التفكير فى كل شبهة بها حجة تعيى دهاة التراجم
ببيت كلانا فى رضى الله ما خصا لحجته صدرًا كثير الهماهم

وهذه الأبيات أحجى أن نعتمد عليها فى هذا الباب، مذ كانت تتعدى فخر الإنسان بنفسه إلى التذكير بوقائع معهودة ومدارسات طويلة، جرت بينه وبين رجل من صفوة أهل العلم والدراية فى أيامه

وقد وردت فى أبياته الهمزية السابقة إشارة إلى حذفه الكتابة ومشاركته فى البلاغة المنثورة تعززها إشارة مثلها فى هذا البيت:

ألم تجدونى آل وهب لمدحكم بشعرى ونثرى، أخطلا ثم جاحظا

فلابد أنه كان يكتب ويمارس الصناعة النثرية. إلا أن ما استجمعناه من منثوراته لا يعدو نبذًا معدودة موجزة، منها رسالة إلى القاسم بن عبيد الله يقول فيها متنصلا:

"ترفع عن ظلمى إن كنت بريئًا، وتفضل بالعفو أن كنت مسيئًا، فوالله إنى لأطلب عفو ذنب لم أجنه، وألتمس إلا قالة مما لا أعرفه، لتزداد تطولا وازداد تدللا. وأنا أعيذ حالى عندك بكرمك من واش يكيدها، وأحرسها

بوفائك من باغ يحاول إفسادها. واسأل الله تعالى أن يجعل حظى منك بقدر ودى لك، ومحلى من رجائك بحيث أستحق منك، والسلام".

ومنها رسالة كتبها يعود صديقًا: "أذن الله فى شفائك وتلقى داءك بديوانك، ومسح بيد العافية عليك، ووجه وفد السلامة إليك، وجعل علتك ماحية لذنوبك مضاعفة لثوابك".

وكتب إلى صديق له قدم من سيراف فأهدى إلى جماعة من إخوانه ونسيه:

"أطال الله بقاءك وأدام عزك وسعادتك وجعلنى فداءك لولا أننى فى حيرة من أمرى وشغل من فكرى لما افترقنا، وشوقى علم الله فغالب وظمأى فشديد. وإلى الله الرغبة فى أن يجعل اقدرة على اللقاء حسب المحبة، إنه قادر جواد"

"ومكاننا من جميل رأيك أيدك الله يبعثنا على تقاضى حقوقنا قبلك، وكريم سجاياك وأخلاقك يشجعنا على إمضاء العزم فى ذلك، وما تطولت به من الإيناس يؤنسنا بك ويبسطنا إليك، وآثار يديك تدلنا عليك وتشهد لنا بسماحتك. والله يطيل بقاءك ويديم لنا فيك وبك السعادة".

"وبلغنى أدام الله عزك أن سابة من سحائب تفضلك أمطرت منذ أيام مطراً عم أخوانك بهدايا مشتملة على حسن وطيب، فأنكرت على عدلك وفضلك خروجى منها مع دخولى فى جملة من يعتدك ويعتقدك وينحوك ويعتمدك، وسبق إلى قلبى من ألم سوء الظن برأيك أضعاف ما سبق إليه من الألم بفوت الحظ من لطفك، فرأيت مداواة قلبى من ظنه وقلبك من سهوه، واستبقاء الود بيننا بالعتاب الذى يقول فيه القائل: ويبقى الود ما بقيق العتاب، وفيما غاتبت كفاية عند من له أذنك الواعية وعينك الراعية".

وقال فى تفضيل النرجس على الورد: "النرجس يشبه الأعين

والمضاحك والورد يشبه الخدود، والأعين والمضاحك أشرف من الخدود. وشبيه الأشرف أشرف من شبيه الأدنى، والورد صفة لأنه لون والنرجس يضارعه فى هذا الاسم لأن النرجس هو الريحان الوارد أعنى أنه أبدًا فى الماء. والورد خجل والنرجس مبتسم، وانظر أدناهما شبهًا بالعيون فهو أفضل".

هذه نماذج من منثوراته لا نعرف غيرها فيما بين أيدينا وخليق بمن يكتب بهذا الأسلوب أن يعد فى بلغاء الكتاب وإن لم يعد فى أبلغهم. على ان ابن الرومى لم يكن يحسب نفسه إلا مع الشعراء إذا اختلفت الطوائف. فإنه يقول عن نفسه وهو يمدح أبا الحسين كاتب ابن أبى الأصبع:

ونحن معاشر الشعراء ننمى ... إلى نسب من الكتاب دان

وإن كانوا أحق بكل فضل ... وأبلغ باللسان والبنان

أبونا عند نسبتنا أبوهم ... عطارد السماوى المكان

ولا عجب فى هذا. فقد كان للشعر كل ما درس الشاعر من فلسفة وعلم وأدب، وكانت هذه المعارف عنده كالروافد للشعر لا نفع لها أن لم ينته بها المصب إلى النهر الكبير. ولم يكن له عقل فيلسوف ولا عقل عالم. وقد رأيت قياسه المنطقى فى تفضيل النرجس على الورد، فهل قياس فيلوف هو أو قياس فنان؟ أنه لقياس فنان نظر إلى الدنيا كأنها متحف للناظر مسرح للشعور، وقليلا ما نظر إليها كأنها معمل للتحليل أو قبضة مبهمة للتأمل والتفكير . .

***

أما حظه من علوم العربية والدين فمن الفضول أن نتعرض لإحصاء الشواهد عليه فى كلامه، لأنه أبين من أن يحتاج إلى تبيين. وندر فى قصائده المطولة أو الموجزة قصيدة تقرأها ولا تخرج منها وأنت موقن باستبحار ناظمها

فى اللغة وإحاطته الواسعة بغريب مفرداتها وأوزان اشتقاقها وتصريفها ومواقع أمثالها وأسماء مشاهيرها وما يحصب ذلك من أحكام فى الدين ومقتبسات من أدب القرآن. فليس فى شعراء العربية من تبدو هذه الشواهد فى كلامه بهذه الغزارة والدقة غير شاعرين اثنين أحدهما صاحبنا والثانى المعرى: وقد كان يمدح الرؤساء والأدباء أمثال عبيد الله بن عبد الله وعلى بن يحيى وإسماعيل ابن بلبل فيفسر غريب كلماته فى القرطاس الذى يثبت فيه قصائده، كأنه كان يشفق أن تفوتهم دقائق لفظه وأسرار لغته، ثم يعود إلى الاعتذار من ذلك إذا أنس منهم الجفوة والتغير:

لم أفسر غريبها لك لكن ... لامرئ يجهل الغريب سواكا

تغيرك لا لك التفسير، أنى ... يفسر لابن بجدتها الغريب

وكانوا لشهرته باللغة وعلم أسرارها ولطيف نكاتها يختلفون له الكلمات النافرة يسألونه عنها ليعبثوا به أو يعجزوه، وقصة "الجرامض" إحدى هذه المعابثات التى تدل على غيرها من قبيلها. فقد سأله بعضهم فى مجلس القاسم بن عبيد الله: ما الجرامض؟ فارتجل فى مجلس القاسم بن عبيد الله: ما الجرامض. فارتجل مجيبًا:

وسألت عن خبر الجر ... مض طالبًا علم الجرامض

وهو الخزاكل! وألغوا ... مض قد تفسر بالغوامض

وهو السلجل شئت ذ ... لك، أم أبيت بفرض فارض.

وكلها كلمات من "مادة" الجرامض لا معنى لها ولا وجود . .

وإذا صح استقراؤنا وكان من أساتذته أمثال ثعلب وفتيبة فضلا عن الأستاذية الثابتة لابن حبيب فلا جرم يصير ذلك علمه بالغريب والأنساب والأخبار وهؤلاء كلهم من نخبة النخبة فى هذه المطالب. ولا سيما إذا أعانهم تلميذ ذو فطنة متوقدة الفهم وذاكرة سريعة الحفظ كهذا التلميذ، فقد مر بك

أنه كـان يحفظ الأبيـات الخمـسة من قـراءة واحدة، فـهب فى الرواية بعض المبالغة الـتى تتعرض لها أمثـال هذه الروايات فهو بعد سـريع الحفظ وهذا مما يعينه على تحصيل اللغة وتعليق المفردات.

أفكان مع هذا العلم بالعربية يعرف لغة غيرها؟ أن جده كان روميًا ولكن كثيراً من الناس أجدادهم غرباء عن أوطانـهم وهم لا يعرفون غير لغة الوطن الذى ولدوا فيه.

وأن أمه كانت تنتمى إلى فارس ولكننا لا نعلم أفارسية هى أم من أصل فارسى قـد يرتفع إلى الأجداد، وفوق بين الحالتـين كما لا يخفى. لأنـها قد تجهل الفارسيـة وهى حفيدة فارسى أو يغلب أن تجهلهـا فى هذه الحالة، وقد تتكلمهـا وهى بنت فارسى وفارسـية فيلقنهـا ابنها وينشأ علـى التكلم بها من صباه

وفى أشعار ابن الرومى كلمـات فارسية غير قليلة كالبنـفشا "البنفسج" والدستبند "ضرب من الرقص" والبذيخت" "سىء الطالع" والشير "الأسد" والبرشوجة "طائر" والدسـتنبوية "الشمامة" والكذخذاة "القهـرمانة" وأشباه هذه الألفاظ، ولكن العلم بألفاظ كهذه وبأضعـافها لا يكثر على ساكن بغداد فى ذلك العصـر الذى تقاربت فيه الأمـتان الفارسيـة والعربية وامتـزجت فيه الحضارتان ونفذ فيه الفرس إلى كل فرع منم فروع المعـيشة الرفيعة والوضعية. فمن أبناء القاهرة اليـوم من يتلقف أضعاف هذا العدد من الكلمات الفـرنسية والإنجليزية والإيطالية ويجريها فى مخطبـاته اليومية، وهو لا يتكلم بغير لسان وطنه . .

بل هناك ما يكـاد يدنو بنا إلى الجزم بجهل ابن الرومـى اللغة الفارسـية وهو قوله فى هجاء إسمالعيل بن بلبل يتهمه فى عربيته:

إسماعيل من رجل ... تعرب بعد ما شاخا
وأصبح من بنى شيبا ... ن ضخم الشأن بذخا
وصار أبوه بسطاما ... وكان أبوه قيباخا
وصار يقول "قم عنا" ... وكان يقول "قوهاخا"

فأول ما يتبادر إلى الذهن أن "قوهاخا" هذه ترجمة "قم عنا" باللغة الفارسية. ولكننا سألنا من يعرفونها بيننا فلم يعرفوا للكلمة هذا المعنى ولا غيره، وأكبر الظن عندنا أنها ليست إلا حكاية صوتية لبعض المخارج الفارسية يحكيها ابن الرومى على سبيل التهكم بالعجمة فى تلك المخارج. وقد تكون تصحيفًا من "قوماخا" وهى قريبة من نطق الأعجمى لقم عنا .. ولو كان حظه من العلم بالفارسية أكثر من حظ الحكاية الصوتية لكان أخرى به أن يظهر فى هذا المقام

مزاجه وأخلاقه

أى خبر من الأخبار التى تسربت إلينا عن حياة ابن الرومى لا نتركه مختارين غير آسفين لو استطعنا أن نستبدل به صورة لوجه الرجل وشخصه؟ بل أى خبر من هذه الأخبار لا نتركه مختارين غير آسفين لو استطعنا أن نستبدل به وصفًا دقيقًا لملامح الرجل وقسماته وشارته وسائر ما يتصل بشكله؟ فقد تعودته النفوس أن تشتاق إلى رؤية من تتحدث به وتسمع عنه. ولم تتعود ذلك عبثًا، ولكنها تعودته لأن الرؤية تزيدها معرفة بمن تريد أن تعرفه، أو لأن المعرفة لا تكمل بغير رؤية.

وليس من مجرد المصادفة - فيما نعتقد - أن تشيع الصور الشمسية والترجمة التحليلية والدراسة النفسية فى عصر واحد، ولا أن تكون الأمم المعروفة قديمًا ببراعة الترجمة وكتابة السير أممًا معروفة كذلك بتقييد الملامح

والسمات فى الصور والتماثيل. فإن فراسة الظاهر جزء من فراسة الباطن. وكلتاهما لازمة لفهم السيرة وإتقان الدراسة النفسية.

ونحن نؤمن بالفراسة كل الإيمان ولا نشك إلا فى المتفرسين أو فى بعض المتفرسين. فالذى فاتنا من ترجمة ابن الرومى بفوات صورته قسم ليس بالقليل، وتعويض هذا القسم بما بقى لنا من الوصف العرضى والأخبار المنزورة من أصعب الأمور.

فهنا نحن أولاء نكتب سيرة ابن الرومى ولا نعرف ما الفرق مثلا بين سحنته وسحنة شاعر من شعرائنا الآخرين، نعم إن ابن الرومى كان كما نعلم سليل أبوه يونانية وأموية فارسية، ولكن ألم يكن من الجائز أنه كان أقرب إلى ملامح الأموية منه إلى ملامح الأبوة؟ أو أقرب إلى ملامح الأبوة منه إلى ملامح الأمومة؟ أكان له وجه فارسى أو وجه يونانى أو وجه رجل فيه مسحة من سمات الشعبين أو لا مسحة فيه من هؤلاء ولا هؤلاء؟ ما نظن ذلك مما يستغنى عنه فى ترجمة شاعر أو صاحب ترجمة كائنًا ما كان.

فإذا كنا سنرجع إلى ذخيرتنا التى نعتمد عليها من شعر الشاعر وإلى القليل من أخباره التى تسربت إلينا فلا ندحه لنا فى هذا الصدد ولا حيلة، وعزاؤنا بعض العزاء أننا قد نهتدى من شعره وأخباره إلى صورة له تعين على تخيله وتمثيله وإن لم تعن عن صورته الحقيقية ولا عن وصفه الدقيق كل الغناء.

***

كان ابن الرومى صغير الرأس مستدير أعلاه، أبيض الوجه يخالط لونه شحوب فى بعض الأحيان وتغير، ساهم النظرة باديًا عليه وجوم وحيرة، وكان نحيلا بين العصبية فى نحوله، أقرب إلى الطول أو طويلا غير مفرط، كث اللحية أصلع بادر إليه الصلع والشيب فى شبابه، وأدركته الشيخوخة

الباكرة فاعتل جسمه وضعف نظره وسمعه، ولم يكن قط قوى البنية فى شباب ولا شيخوخة ولكنه كان يحس القوة اليسيرة فى الحين بعد الحين كما يحس غيره العلل والسقام، فكان إذا مشى اختلج فى مشيته ولاح للناظر كأنه يدور على نفسه أو يغربل، لاختلال أعصابه واضطراب أعضائه. وكان على حظ من وسامة الطلعة فى شبابه معتدل القسمات لا يأخذ الناظر بعيب بارز ولا حسنة بارزة فى صفحة وجهه، أما فى الشيخوخة فقد تبدلت ملامحه وتقوس ظهره، ولحق به ما لابد أن يحلق بمثله من تغيير السقام والهموم.

هذه خلاصة الصورة التى استخرجناها من شعر الشاعر وأخباره، وقد كان ينبغى أن نكتفى بها ونقف عندها لو كانت "الترجمة لذاتها" هى التغرض الوحيد من هذا الكتاب. ولكن "الترجمة" ليست هى كل ما نقصد إليه ولا أهم ما نقصد إليه، لأ، الطريق المؤدى إلى الترجمة غرض كبير من أغراض الكتاب لا يقل عن بيان الترجمة لذاتها، ووسيلة الوصول إلى النتيجة مطلوبة كالوصول إلى هذه النتيجة، والصيد مقصود هنا كما نقصد المائدة والطعام الذى على المائدة. فمن الواجب علينا أن نبين مكان هذه الترجمة من شعر ابن الرومى وحاجة الأخبار التى بين أيدينا إلى التكميل من كلامه فى وصف نفسه عامدًا وغير عامد، وأن نبين كيف أن ديوان شعره قد تجاوز حد الترجمة الباطنية إلى الترجمة التاريخية، لاشتمال وجدان الرجل عليه وفرط اسيعابه لنفسه فى شعره، وشدة الامتزاج بين حياته وفنه.

فأما أنه كان صغير الرأس مستدير أعلاه فيؤخذ من رده على من عاب صغر رأسه:

إذ تنقصتنى بصعلكة الرأ ... س، سفاها واذمت غير ذميم
ما تعديت أن وصف خشا ... لو ذعيا كالحية المشهوم

* * *

وقـديمًـا مـا جـرب الناس قـبلى ثقل الهـام فى الخـفـاف الحلوم

واعـتبـر أن أفشل الطيـر فى الطيـ ـيـر، وفـينا كـروسـات البـوم

فهو يقول لعائبه أن صـغر الرأس لا يزرى به لأن الحية المشهور - وهى موصوفة بالحكمة واليـقظة - صغيرة الرأس، والبومة كبيـرته، وهى مضعوفة فاشلة بين الطير والناس.

وأما أنه كان أبيض اللون فذلك غير عجيب فى رجل له جد من الفرس وجد من الروم، وقد قال هو يصف ديلاجة وجهه فى نضرة العمر:

ياهل تـعـود سـوالف الأزمـان أولا؟ فـمنصـرف إلى الـسلوان

كـيـمـا أروح وللشـبـيـبـة حـبـرة أرنى العـيـون بفـاحـم فـتـان

وبمشـرق صـافى الأديم كـأنما فـيـه ائتـلاف من صـفـيح يمـان

والإشراق والصـفاء والائتـلاف أشبه بـالبياض منهـا بأى لون من ألوان الوجوه.

وأما أنه كان "يخالط وجهه شحوب فى بعض الأحيان وتغير، وأنه كان ساهم النظرة باديًا عليـه وجوم وحيرة". فـيفهم من قوله وقـد لاحظت عليه بنت صغيرة لعبيد الله ابن عبد الله أنه كان كثير السكون والتفكير:

وشـقـيـقـة قـالت أراه مـفكرًا حـتى أراه من الـسكينـة نائمًـا

فـأجـبـتـهـا أنـى امـرؤ هيـامـة فى كل واد مـا أفـيـق هـمـامـهـا

أمـسى وأصـبح للشـوار طـالبًـا بهـواجسى، حـول الأوابد حائمًـا

وهى ملاحظة صـادقة بسيطة كـأكثر مـلاحظات الأطفال - ولا سيـما البنات - على الرجال الذين يرونهم عند آبائهم فيتفرسون فيهم ويطيلون النظر إليهم. ثم إن أناسًا كانوا يعـيبون عليه انقباضه كمـا يؤخذ من قوله فى هجاء بعضهم: "يعيب انقباضى معجبًا بانبساطه" وكما قال على بن إبراهيم كاتب

مسروق البلخي: "كان إذا فاجأه الناظر رأى منه منظراً يدل على تغير حال". ولو لم يكن هذا واضحًا فى شعره وأخباره لتوسمناه من اعتلال صحته وخيبة أمله وكثرة شكواه.

وأما نحوله "العصبى" المعروق فالدلائل عليه فى شعره كثيرة منها قوله:

أنا من خف واستدق فما يثـ ـقل أرضًا ولا يسد فضاء

. . . . . .

أنا ليث الليوث نفسًا وإن كنـ ـت بجسمى ضئيلة رقشاء

ومنها:

يقول القائلون ضويت جدًا ولم تنضحك أرحام النساء

ومن انضاجها إياى أعرت عظامى من لحومهم الوطاء

إذا ما كنت ذا عود صليب فيكفينى القليل من اللحاء

ومنها:

وزارية على بأن رأتنى من الهزلى حقيراً فى السمان

وذلك فضلا عن مدحه النحافة فيمن كان يمدحهم وتفضيله شأو الخماص على شأو البطان لأن العصب جعل فى الرجال قديمًا و "كذا الجدل فى الحبال المتان"

وتعلم أنه كان أقرب إلى الطول أو طويلا غير مفرط من شعره وحده لا من خبر روى عنه. فقد كان شديد السخر بالقصار شديد النكاية فى هجائهم، ومن قوله فى شيخوخته:

أقول وقد شابت شوانى وقوست قناتى وأضحت كدنتى[1] تتخدد

(١) بنية الجسم من شحم ولحم.

ومنه:

وأرى قوامى لج فى تقويسه ولقد يلج اللين فى تعطيفه

والقوام والقناة والتقـويس بالطوال أشبه، ولا سيما حـين يلج التقويس ولا يقف عند الانحناء اليسير. ويتوسم فيه الطول من أبيات كثيرة كهذا البيت

وكم مثلها من ظبية قد تفيأت ظلالى وأغصان الشبيبة ميد

ومثله:

وظبية من ظباء كان مسكنها فى ظل غصنى، إذا ظل الضحى التهبا

ومثله:

إذ للشبيهة صبوة تصبو بها وبشاشة نصبى بها وتروق

يهتز منك لاريحيات الصبا غصن فيؤه الظباء وريق

ولا يكون الاهتزاز والتشبيه بالغصن الذى تتفيؤ الظباء إلا لقوام فيه امتداد وطول

وقد طلب مرة ثوبًا فكتب يقول ويذكر نفسه بضمير الغائب:

فأنجز الوعد بثوب له من الجياد المرتضاة الحسان

وفى القوافى ثمن مربح فلا يقصر ذرعه عن ثمان

فإذا حسبنا كل حساب للطمع فلا نظن ثمانى أذرع تطلب لرجل قصير أو فوق القصير بقليل. إلا أنه لم يكن مفرط الطول لأنه كان يهجو من فى طوله إفراط كما قال فى عمرو الحاجب:

فلقد منه طول نهر معوج وللأنف منه نفخة البوق فى الكفر

ونحسب هذه الشواهد كلها كافية فى تخيل قوامه، وأنه لم يكن بالطويل المفرط ولا بالقصير.

وكان ملتحيًا ولا شك فى أوائل كهولته لأنه يقول:

رأيت جليس لا يزال يورعه — بياض القذى فى لحيتى فيميطه
فكيف به عما قليل إذا رأى — قذى الشيب قد عفى عليها سفيطة(١)

فهو قد التحى فى سن يتوقع ما بعدها من زيادة الشيب وعمومه. إلا أنه اكن كث اللحية قصير شعرها كما قال:

ولم أزل سبط الأخلاق واسعها — وأن غدوت امرءًا فى لعيتى كثث

وكأنما جعل من ذلك النقص فخرًا لأنه نقص لا يد له فى استدراكه، فكان يسخر من اللحى الطوال ويسميها أذنابًا ومخالى ومذبات ويشك فى أدب كل غزير اللحية بل يجعل غزارتها دليلا قاطعًا على نزارة أدبه حتى البحترى! لأن . .

البحترى ذنوب الوجه نعرفه — وما رأينا ذنوب الوجه ذا أدب

ومغالطته فى هذا بادية من دخيلة إحساسه بهيبة اللحية وأنها علامة التذكير حيث يقول لصاحب لحية طويلة:

أرع فيها الموسى فإنك منها — يشهد الله - فى أثام كبير
أيما كوسج يراها فيلقى — ربه بعدها صحيح الضمير
هو أحرى بأن يشك ويغرى — بأنهام الحكيم فى التقدير
لحية أهملت فسألت وفاضت — فإليها تشير كف المشير
ما رأتها عين امرئ ما رآها — قط إلا أهل بالتكبير
روعة تستخفه لم يرعها — من رأى وجه منكر ونكير
فاتق الله ذا الجلال وغير — منكرًا فيك ممكن التغيير
أو فقصر منها نحسبك منها — نصف شر علامة التذكير

---

(١) نثيره.

والرغبة فى غزارة اللحية معقولة من رجل أصلع كان يفرق سن الصلع ويخفيه جهده، ويود أن يداويه بغزارة الشعر فى وجهه الذى لا يستطيع مداراته كما كان يدارى رأسه . .

أما الشيب والصلع فحديثه عنهما طويل وشهرته بما قال فيهما مضرب الأمثال بين الأدباء.

شاب رأسه فى غضارة الشباب فقال:

شاب رأسى ولا ت مشيب وعجيب الزمان غير عجيب

قد يشيب الفتى وليس عجيبًا أن يرى النور فى القضيب الرطيب

ولم يدع لنا أن نسأل عن السن التى شاب فيها لأنها هى الحادية والعشرون من عمره كما عينها لنا تعيينًا فى قوله:

فظلم الليالى أنهن أشبننى لعشرين يحدوهن حول مجرم

ثم والى ذكر السنين مرحلة بعد مرحلة، فقال فيما دون الثلاثين:

وأنى تقرع رأسى المشيـ ـب ولم أقرع ثلاثين عامًا

وبلغ الأربعين فعد نفسه من الموتى إلا أحلامًا تذكره الحياة:

ميت إلا حشاشة وأذكار مثل أحلام حالم النوام

ومتى ما انقضت أجارى طرف مات إلا صيامه فى المصام

وقضيت الرضاه من درة الكر م لتجريم أربعين تمام

وهكذا فى الخمسين والخامسة والخمسين والستين، كأنه عابر طريق يحصى ما عبر منها وما بقى له أن يعبر، وما وخط الشيب شعره حتى آلى له من البداية "يمينًا لأخفينك جهدى" ووالى إخفاءه بقية عمره. وأخفى الصلع حين أصابه فى شبابه كما أخفى المشيب، فكان لا يرى فى مكان إلا لابسًا عمامة، وعز عليه أن يمنى بهذا التشويه فى نظره وهو الذى أولع بكل تشويه

يتضاحك به ويفتن فى تمثيله ويغرق أصحابه فى المزج والدعابة. فلزم العمامة لا يخلعها وأخفى سر ذلك عن جلسائه وجليساته، فكان أثقل شىء عليه أن يتعرض متعرض لهذا السر المصون!

يا أياها السائلى لا خيره ... عنى: لم لا أراك متعجرا؟
أستر شيئًا لو كان يمكننى ... تعريفه السائلين ما سترا

ومن عيره هجاه وقال فيه:

يعيرنى لبس العمامة سادرًا ... ويزعم لبيسها لعيب مكتم

وتلا ذلك ما لابد منه فى هجاء صاحبنا من عوار الكلام ثم انكشف الأمر ولم تغن الحيلة فى لجاج الفضوليين والمتشوقين فعاد إلى العمامة يحيل عليها اللوم ويتهمها بجريرة الصلع ويقول أنه لم يكن أصلع قبل أن يلبسها وإنما كان يتقى البرد والحرر فدهاه طول التعمم فى لمته، فهو يلبسها الآن لستر هذا التشويه . . الحديث!

تعممت إحصانًا لرأسى برهة ... من القر يومًا والحرور إذا سفع
فلما دهى طول التعمم لمتى ... وأودى بها بعد الأصالة والفرع
عزمت على لبس العمامة حيلة ... لتستر ما جرت على من الصلع
فيا لك من جان على جناية ... جملت إليه من جنايته الفزع

ولا يبعد أن يكون هذا صحيحًا بعض الصحة، وأن خوفه البرد والحر كان من أسباب ملازمته العمامة وإن لم يكن هو كل السبب، فقد كان يكابد فى الصيف نصبًا كما قال لبعض ممدوحيه "يا عليمًا بما أكابد فيه[1] . . . وكان مرهف الحس جدًا فكان أهون مس يهيج أعصابه ويستنفر خلقه، بل

(١) قد مضى أكثر الشتاء وجاء الصيف يعدو فلا تزده النظاء.
يا عليمًا بما أكابد فيه لا تعاونه، أن فيه اكتفاء

كانت الرائحة إذا قويت تؤذيه وتصدعه، فلهذا كان يذم الورد ويمدح النرجس كماجاء فى فصل التلطلف من كتاب الصناعتين. ومن بلغ منه التفزز هذا المبلغ لم يبعد أن يلبس العمامة لاتقاء الحر والبرد، ولم يبعد كذلك أن يكون ضعيف الشعر فطرة وأن يصيبه الشيب والصلع لأضعف سبب . .

أما مشيته فقد تولى هو وصفها لنا على طريقته التى لا تدع شيئًا من تمثيل الشكل والحركة، فعلمنا منه أنه كان يختلج فى مشيته كأنه يحمل بين يديه غربالا يديره

إن لى مشية أغر بل فيها آمنًا أن أساقط ألا سقاطًا

وهذه المشية معروفة تدل عليها حركة الغربلة وتكثر فيمن بهم خلل فى العصب أو العضل. وفى ديوانه أبيات يهجو بها أخا نضر الجهبذ لأن نضرًا أراد أن يزوجه بنته فمنعه من ذلك أخوه وقال له: أما انظر إلى مشيته مثل مشية المخنثين؟

ونحسب أننا فى غنى بعد هذا عن شواهد أخرى على حظه من الصحة وقوة التركيب فى شبابه ومشيبه، ولكننا لا نحب أن نحدس إذ أمكن أن نجزم، فالرجل يقول فى صباه:

وإنى للقوى على المعالى وما أنا بالقوى على الصراع

وكان يشكو مرض العينين قبل الشيخوخة، ففى ذاك يقول من قصيدته الدالية فى صلح عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وأخيه سليمان، وهى مما نظم حوالى الأربعين:

شغلت عنك بمواد أكابده لا بالملاهى ولا ماء العناقيد
ولو قعدت بلا عذر لهد لى جميل رأيك عذرى أى تمهيد
قاسيت بعدك لا قاسيت مثلها نهار شكوى يبارى ليل تسهيد

أمسى وأصبح فى ظلماء من بصرى فما نهارى من ليلى بمحدود
كأننى من كلا يومى وليته فى سرمد من ظلام الليل ممدود
إذا سمعت بذكر الشمس أسفنى فصعدت زفراتى أى تصعيد

وذلك إلى شكاية من المتطببين واعتذارات كثيرة بالمرض تدل على بنية مصابة وحظ من العافية قليل.

فلما أدركته الشيخوخة لا جر برحت به واشتدت وطأتها عليه فرجفت أعضاؤه وتعاورته الأسقام واحتاج إلى العصا وزاغ نظره وثقل سمعه.

ودب كلال فى عظامى أدبنى جنيب العصا، ناد أو أتأيد
وبورك طرفى فالشخوص حياله قرائن من أدنى مدى وهى فرد

أو كما قال فى قصيدة أخرى:

وأحدث نقصك القوى بين ناظرى وسمعى وبين الشخص والصوت برزخا

جماع ذلك قوله:

أنا ذاك الذى سقته يد السـ ـقم كؤوسًا من السقام رواء
ورأيت الحمام فى الصور الشـ ـنع فكانت لولا القضاء قضاء

وقد اختلفت أقوال ابن الرومى فى حظه من القسامة قبل أن تجوز عليه السن وتعصف السقام بما كان له من صباحه فى صخوة عمره. فهو إذا أراد أن يمزج أو يهون على نفسه فقد الشباب العزيز: قال:

من كان يبكى الشباب من جزع فلست أبكى عليه من جزع
فإن وجهى يقبح صورته ما زال لى كالمشيب واللصع

أو قال:

جزى الله عنى قبح وجهى سعادة كما قد جزاه، والإله قدير

دعـوت بـه قـومًـا فـأرادوا إتاوة كـأنى عليـهـم عند ذاك أميـر

وهو إذا أراد ان يرثى الشباب وينفجع عليه قال:

وكنت جـلاء للعـيون من القـذى فقـد جعلت تقـذى بشيبى وترمد

أو قال:

ومـا يرجى من الـبـيض ابتـسـام أن أمـسى لمفـرقـة ابتـسـام

كـان مـحـاسنى لم تضـح يومًـا وفى لحظـاتهن لهـا اقـتـسـام

كـأنى لم أر اللـمـحـات نحـوى وفى اللـمـحـات لـثم والتـزام

والمرء يبـالغ إذا أراد أن يتـهكم أو يتـفجـع، ويبالغ إذا أراد التـهـوين أوالتهـويل، فالصورة الأولى أدخل فى بـاب الصور الهزليـة التى فيهـا مافى جميع هذه الصـور من التحريف والمسخ والمبالغة، والصـورة الثانية أدخل فى باب الصور المحسنة التى يـكثر فيها التنوق والإصـلاح، ولكنا نرجح أنه كما قلنا "على حظ من وسامة الطلعـة فى شبابه معتدل القـسمات لا يأخذ الناظر بعيب بارز ولا صفـة بارزة فى صفحة وجهه". لأنه كـان يتناول بالسخر كل عيب فى وجوه الذين هجـأهم من خصومه ومازحهم من أصـحابه، فلو كان فيه مثل هذه العيوب البارزة التى لا تدارى ولا يغالط فيها لما تناولها ولا حول الأنظار إلى مثلها فى وجهه، أو هو لو كانت فيه هذه العيوب وتناولها بالهجو والدعابة لتـعرض له المهـجوون بمثل فعله عليـهم شعرًا كـما رد عليـهم حين تعرضـوا له فى العيـوب الأخرى من مشـية أو صلع أو هزل. فـالأقرب إلى الترجيح أنه لم يكن ذا عيب بارز ولا حسنة بارزة، وأنه لم تكن ظاهر الحسن ولا ظاهر التشويه. على أنه كـأننا ما كان حظه من القسامة فى صبـاه قد فقد ولا ريب ذلك الحظ الذى كان له حين شاح وجاوز الخامـسة والخمسين، فإننا لا نتخـيل الجمال لشـيخ نحيل مـعروق تقوس ظهـره وشحب وجهـه وانطفأ وميض عينيه وطال عليه السقم والغم ولم تزينه الشيخوخة بذلك التاج الفضى

الذى تسبغه على رءوس الشيوخ ولا بتلك الحلية الناصعة التى تحيط بها وجوههم بالوقار والجمال.

***

على أن ضعف البنية لم يكن ليضير ابن الرومى كثيراً فى شبابه أو فى شيخوخته لو أنه اعتدل فى عيشه وقوى على ضبط نفسه، فإن ضعاف البنية قد يعمرون ويبلغون فوق الستين التى بلغها ابن الرومى وهم فى عيشة سوية وحالة من الصحة مرضية، وربما نيف الهزيل على الثمانين وهو مافى الجسد موقى من الأمراض التى لا يتقيها الأقوياء ولا يحجمون عن مواقعة أسبابها، ولكن ابن الرومى كان هزيلا وكان مع هزاله قليل التصون والاحتراس، فجنى على بدنه فوق ما جناه عليه هزاله ولج به الحس المتوفز فتهافت على لذات الحياة وأطايبها تهافت من لا يحب أن تفوته متعة أو تفلت منيديه نهزة، وكبر له الخيال لذات الحس ومباهجه فأكب على مائدة الحياة كالطفل على مائدة الحلوى لا تمنعه كظة ولا تقمع شهوته حمية. وراح منهومًا كذلك بكل لذة عقلية يلتهم المعرفة كما يلتهم اللهو والنعمة التهام من يخشى أن يذاد عنا ولما يستوف شبع شهوته منها. فجار على بنيته الضاوية وانطلق مسرفًا فى درسه مسرفًا فى اشتهائه مسرفًا فى طعامه وشرابه، وروى له الشعر حتى فى أصناف الطعام والشراب بل روى له الشعر فى هذه الأغراض حيث لا يروى له شعر غيره. قال محمد بن يحيى الصولى فيما نقله المسعودى فى مروج الذهب:

"أكلنا يومًا بين يدى المكتفى بعد هذا بمقدار شهر - أى بعد أكلة روى فيها شعر لابن الرومى - فجاءت لوزينجة فقال: هل وصف ابن الرومى اللوزينج؟ فقلت نعم. فقال أنشدنيه، فأنشدته:

لا يخطئنى منك لوزينج ... إذا بدا أعجب أو عجبا

لم تغلق الشهوة أبوابها ... ألا أبت زلفاه أن يحجبا

لو شاء أن يذهب في صحته لشهل الطيب له مذهبا
مستكثف الحشو ولكنه أرق جلدا من نسيم الصبا
كأنما قدت جلابيبه من أعين القطن الذى طنبا[1]
يخال من رقة خرشائه[2] شارك فى الأجنحة الجنديا

إلى آخر الأبيات .. فحفظها المكتفى فكان ينشدها

وأخبر نفطوية عن أحمد بن حمدون: "تذاكرنا يومًا بحضرة المكتفى فقال: أفيكم من يحفظ فى نبيذ الدوشاب شيئًا؟ فأنشدته قول ابن الرومى:

إذا أخذت حبه ودبسه ثم أجدت ضربه ومرسه
ثم أطلت فى الإناء حبسه شربت منه البابلى نفسه

فقال المكتفى: قبحه الله ما أشرهه! لقد شوقنى فى هذا اليوم إلى شرب الدوشاب

وإنا لنقرأ هذه الأبيات وأمثالها الكثيرة فى ديوان ابن الرومى فيخطر لنا عصره المترف ويخطر لنا أن الإسهاب فى وصف الطعام والشراب لم يكن فى ذلكل العصر معيبًا ولا مخلا بالمروءة، لأنه كان عصر الشهوات جميعها وأولها شهوة المأكل والمشارب، بل كان عصرًا يصح أن يسمى بعصر الموائد والولائم لأنها كانت وصلة الاجتماع فى الجد واللهو وملتقى طلاب اللقاء فى مواعد الوجبات اليومية وغير مواعدها المألوفة، وكان من مقاييس مروءة الرجل أن ينظر إلى مطعمه فى بيته وبراعة طهاته ونفقته على أكله، فغضب المتوكل على عافية بن شبيب وأقصاه من مجلسه ونفاه إلى البرصة لأنه رأى له طعامًا لا يليق بمن يجالس الخليفة وينال صلاته، ونحن لا نتصفح أخبار المجالس فى ذلك العصر إلا صادفنا الحديث عن الولائم والمهارة فى إتقانها

(١) إذا انتفخت قطرة الماء كان لها قبة رقيقة هى المقصودة هنا.

(٢) الخرشاء قشرة البيض العليا.

والسخاء فى النفقة عليها. فربما كان الخليفة وجلساؤه يتواعدون إلى الموعد ومع كل منهم كعامه يتفكهون باستعراض ألوانه، والمقابلة بين صناعاته وطعومه، وكان من تمام ظرف الأديب والنديم أن يحذق شأن الطعام ويخبر صنعه وما قيل فى وصفه، فظهرت فى ذلك العصر كتب الأدباء فى فن الطهو ككتاب الطبيخ لإبراهيم بن العباس الصولى وكتاب الطبيخ وكتاب فضائل السكباج لجحيظة البرمكى، وخفت مذمة النهم لأنه أصبح كأنه قدرة وعلم وظرف! وكأنه فى ذلك كله أقرب إلى الفخر منه إلى الملامة!

يخطر لنا ذلك العصر المترف ونحن نقرأ هذه الأبيات الكثيرة فى ديوان ابن الرومى فنسأل أنفسنا: ما نصيب العصر فى تلك الأوصاف وما نصيب الرجل؟ وما حظ العين من لون وشكل وما حظ المعدة من شبع وامتلاء؟ فمن شاء أن يحسب نهم ابن الرومى على النحو المتقدم بابًا من الأدب لا بابا من الشرة فله ذلك وحجته فى هذا الحسبان غير ضعيفة! ولكنه هو لا يدعنا نحار فى خليقة كهذه الخلائق التى تحكى عنه ويكون لها دخل فى حياته، فإذا تطرق الشك إلى جانب فلا بد له من جانب آخر يقطع ذلك الشك ويردك إلى اليقين فيه، ومن شعره المحفوظ ما يروى لك كيف كان يعاب فى آكله وكيف كان رده على من يعيبونه، فتارة يقر بالذنب ويزعم أنه هفوة لا جريمة.

أأن اصطبغت ولقمتى معضوضة[1] أنشأت تهجونى بذلك ظالما؟
عيب لعمرك غير أن لم آته عمدًا! فهبنى هافيا لا جارما

وتارة يقول لقسطنطين جارية أم حبيب وكأنها ضحكت من آكله:

ذرينى قسطنطين آكل شهوتى وتبشمنى، أنى بذلك راض
فأكثر ما القى من الزاد كظة مدى يومها واليوم أسرع ماض

(١) اصطبغ ولقمته مغضوضة أى وضع اللقمة فى الطعام وفى فمه لقلة يمضغها.

ثم لا ينسى أن يعرض كدأبه بغير ذلك، وأن يذكر الكظة التى لا تنصرف إلا بعد تسعة شهور!

وتارة يصف الطعام ويعقب الوصف التشويق إليه واللهفة عليه:

لهفى عليها وأنا الزعيم بمعدة شيطانها الرجيم

بل هو لا يدعنا نحار حتى فى "الأصناف" التى كان يحبها ويؤثرها على سواها. فقد علمنا مثلا أنه كان يحب الموز من الفاكهة لأنه غذاء القلوب لا غذاء المعدات!

يكاد من موقعه المحبوب يدفعه البلع إلى القلوب

وأنه كان يعاف المشمش لأنه دواء غذاء

إذا ما رأيت الدهر بستان مشمش فأيقن بحق أنه لطبيب

وعلمنا أنه كان يشتهى السمك ويمعن فيه:

فيا حبذا إمعاننا فيه ناضجًا كما جاء من تنوره الموقد

وعلمنا أن ابن أبى بشر المرثدى غلط مرة فوعده أن يوافيه أيام السبت بالهدية منه بعد الهدية. فوقع المسكين فى شباكه فما كانت تنقضى فترة إلا على تذكير له ومناوشة، وجعل ابن الرومى هذا الوعد هجيراه ودعابته التى لا يفرغ منها. وكا كان يفرغ من دعاية ولا غير دعابة وفيها بقية، فحينًا يقول أنه قد تهود فى انتظار السمك ويسأل ابن الرومى بشر:

ما لحيتانا جفتنا وأنى أخلف الزائرون منتظريهم!

قد أزحنا اعتلالهم وجعلنا سبتهم جمعة، فما يشكيهم؟

جاء فى السبت زورهم فأتينا من حفاظ عليه ما يكفيهم

وجعلناه يوم عيد عظيم فكأنا اليهود أو نحكيهم

واحتملنا مقالة الناس فينا ولهم كل ما احتملنا فيهم

قــد سبــتنا، وإنما كـان قـوم يوم لا يســبــتــون ولا تأتيــهم

يشير إلى المائدة التى كانت تأتى بنى إسرائيل يوم يسبتون . . . !

وحينا يحـمد الله الذى نجى السمك حين تعلقت به شـهوة ابن الرومى ووعد المرثدى

الحمـــد لله الذى نجى الســمك من الشــصوص الجائلات والـشبك

علمـــه يونس من تــسـبـيــحـــه مـــا كـــان أدناه إلى تســريحـــه

فــهــو مــن الصـيــاد فى أمـــان مـا دمـا أبغـيــه، وفى ضـمـان

وحينا يسائل المرثدى مستعظمًا لا بطائه:

الحوت حوت الأرض أم حوت يونس لك الخير، أم حوت السماء أروم؟

وحينًا يسأل السمك:

أيا ســمكًا بين الســمــاكـين عـزة إلى كـم يرانا اللـه عنك تصــــوم

وحينًا يعلم المرثدى أن دجلة قريبة من قصره وأنه قليل العذر فى أخلاف وعده:

أعلم وقـــيت الجـــهـل أنك فى قـــصــر تـليــه مطارح الســمك

. . . .

وبـنــات دجـلـة فـى فـنـائـكـم مــاســورة فى كل مــعــتــرك

. . . .

بيض كــأمـثــال الـسـبــائك بل مـشـحــونة بالشـحم كـالعلك

تغنـى عن الزيات قــاليــهــا وتبـــخـــر الشـــاوين بـالودك

. . . .

فليــصطد الصــيـــاد حـاجـتنا تصـطد مـــودتـنا بـلا شـــرك

وهكذا وهكذا مما يغريه به حب السمك وحب الدعابة، وكلاهما شهى إليه!

وكان هذا ديدنه فى كل أمر من أموره: إسراف واستقصاء لا يمسكهما ولا تعقدهما عزيمة، إسراف واستقصاء فى النكتة وفى المعنى وفى الدرس وفى الطعام والشراب والشهوات، لا حد لهما إلا البشم والامتلاء واستنفاد ما بين يديه من مادة مادة فى ساعتها حتى لا سؤر ولا صبابة

إن يكن عندك لى نصـ ـح فما عندى انتصاح
لا تلمنى فالهوى فيـ ـه جماح وطماح
ما على المفتون فى ما غلب الصبر جناح
كل شىء غلب الصبـ ـر إليه فمباح
إنما الدنيا ملاه واغتباق واصطباح
والمزاح الحد أن فكـ ـرت والجد المزاح

وتختلف نزعات هذا الإسراف وسببها كلها واحد: سببها كلها توفز الحس ومطاوعة الرغبة الحاضرة والاندفاع معها وقلة الصبر عنها، ولو أن هذه الأشواق الجامحة شفعت بمسكة من العزم المتين لاعتدلت حاله ولو بعض الاعتدال وسلم جسمه ولو بعض السلامة، ولكن أنى له العزيمة وهو أسير إحساس اللحظة التى هو فيها لا يترك له استغراقه فى مؤثراتها الحاضرة منفذا إلى التفكير فى قابل أو غابر، ولا يعدل بما يزينه الحس والخيال حظًا تزينه له الحكمة والحصافة

وصاحب هذا المزاج إذا خلا من الإحساس الثائر والرغبة الجامحة يثوب لا محالة إلى وجوم يجثم على صدره وانقباض يثقل على وجدانه. كالنشوان لا يفيق من أحلام الكأس حتى يرين عليه السأم فيسرع إلى النشوة، فهو أبدًا بين النقيضين من ثورة الإحساس وشدة الوجوم.

وليس التناقض بين ثورة الإحساس والوجوم فى الحقيقة إلا ظاهراً لا يتعمق إلى البواطن الدخيلة، إذ أن فرط الإحساس كثيراً ما يؤدى بصاحبه إلى فرط الوجوم اتقاء الألم أو شعوراً بالوحشة التى تنتابه حين يرى التفاوت بين شعوره وبلاده منحوله، أو مضيًا مع عادة التفكير والخلو بالنفس التى ينميها التفات الإنسان إلى موارد الإحساسات المتوالية على وجدانه وحسه، وإذا لم يتوجه الإحساس إلى العمل والحركة فسبيله التى لا محيد عنها أن يتوجه إلى التأمل ومناجاة السريرة، وندر أن يوجد الخجل والاحتجاز إلا مع شدة الوعى والتنبيه لكل حركة يتحركها الإنسان وكل كلمة ينبس بها وكل أثر يكون لحركته وكلامه فى نفوس غيره، فالسكون أدل على الحس المتوفر فى بعض الأحيان من الحركة والاضطراب . .

ولعل الأصوب أن نقول أن ابن الرومى وقع من مزاجه وإسرافه فى حلقة موبقة لا يدرى أين طرفاها. فمزاجه أغراه بالإسراف والإسراف جنى على مزاجه، فإن هذا الإسراف الموكل بالاستقصاء فى كل مطلب ورغبة خليق ولا غرو أن يسقم جسمه وينهك أعصابه ويتحيف صوابه، بيد أنه لا يسرف هذا الإسراف إلا وفى جسمه سقم وفى أعصابه خلل وفى صوابه شطط لا يكبح جماحه، فالعلة هى سبب الإسراف والإسراف هو سبب العلة! وهو من هذه الحلقة الموبقة فى بلاء واصب ومنحة لا قبل بها للضليع الركين فضلا عن المهزول الضئيل، وعلاقة كل ذلك باختلال الأعصاب وشذوذ الأطوار بدءاً وعوداً ثم عوداً وبدءاً علاقة من جانب الجسد ومن جانب التفكير.

ولا تعوزنا الأدلة على اختلال أعصاب ابن الرومى وشذوذ أطواره من شعره أو من غير شعره، فإن أيسر ما تقرأه له أو عنه يلقى فى روعك الظنة القوية فى سلامة أعصابه واعتدال صوابه، ثم يشتد بك الظن كلما أوغلت فى قراءته والقراءة عنه حتى ينقلب إلى يقين لا تردد فيه. وكل ما نعلمه عن

نحافته وتفزز حسه وشيخوخته الباكرة وتغير منظره واسترساله فى الوجوم واختلاج مشيته وموت أولاده وطيرته ونزقة وشهوانيته الظاهرة فى تشبيبه وهجائه، وإسرافه فى أهوائه ولذاته ثم كل ما نطالعه فى ثنايا سطوره من البداوات والهواجس - قرائن لا تخطئ فيها الدلالة الجازمة على اختلال الأعصاب وشذوذ الأطوار، بل لا تخطئ فيها الدلالة على نوع الاختلال ونوع الشذوذ.

ونقول "نوع الاختلال" لأن هذه الكلمة عنوان واسع يشمل من الحالات النفسية والجسدية مثل ما تشمله كلمة "الصحة" أو أكثر، فهذا صحيح وهذا صحيح ولكن ألبون بينهما جد بعيد، وهذا مختل الأعصاب وذاك مختلفًا ولكن الخلاف بينهما فى الأخلاق والمشارب كأبعد ما يكون بين فردين مختلفين من بنى الإنسان. فتختل أعصاب المرء فإذا هو جسور عنيد معتسف للأخطار هجام على المصاعب لا يبالى العظائم ولا يحذر العواقب، وتختل أعصاب المرء فإذا هو وديع مطيع حاضر الخوف متوجس من الصغائر يبالغ فى تجسيمها أو يخلقها من حيث لم تخلق ولم يكن لها وجود فى غير وهمه. وبين الحالتين - لا بل فى كل حالة من الحالتين - نقائض وفروق لا تقع تحت حصر ولا تطرد على قياس.

وبديهى أن ابن الرومى لم يكن من الفريق الأول فى "نوع اختلاله" ولكنه كان من الفريق الثانى الذى يستحضر الخوف ويكثر التوجس ويختلق الأوهام.

ومن أصحاب هذا المزاج من يخاف الفضاء أو يخاف الماء أو يخاف حيوانات منزلية لا قوة لها ولا ضراوة كالقطط والكلاب والجرذان، فابن الرومى واحد من هؤلاء نحسب أنه كان مستعدًا لهذه الهواجس طول حياته فى صحته ومرضه وفى شبابه ومشيبه، ونحسب أن استقصاء للمعانى الشعرية والإلحاح فى تفريعها وتقليب جوانبها إن هو إلا علامة خفيفة من علامات

هذا الوسواس الذى لا يريح صاحبه ولا يزال يشككه ويتقاضاه التثبت والاستدراك، فيمنعن ثم يمعن حتى لا يجد سبيلا إلى الإمعان . .

ولكنه مع استعداده للهواجس فى شبابه ومشيبه قد تمادى به الوسواس فى أعوامه الأخيرة حتى أصبح آفة متأصلة غلبت على أقواله وافعاله جميعًا فليس له عنها محيص، فأفرط فى الطيرة واشتد خوفه من الماء لا يركبه ولو أدفع وعاه إلى ركوبه من يمنونه الأرفاد وحسن الضيافة، وصور لنا ما يعتريه من خوف الماء تصويرًا لا يدل إلا على حالة مرضية ولو كان التشبيه فيه من مجاز الشعر وتهويل الخيال، وهذا بعض ما قاله فى مخاوفة وأهوال ركوبه:

ولو ثاب عقلى لم أدع ذكر بعضه ولكنه من هوله غير ثائب

. . . . . .

أظل إذا هزته ريح ولألأت له الشمس أمواجًا طوال الغوارب

كأنى أرى فيهن فرسان بهمة يليحون نحوى بالسيوف القواضب

والماء الذى يصفه هنا هو ماء دجله لا ماء البحر ولا ماء المحيط! . .

هذه الوساوس هى التى عناها الذين قالوا - فى رواية المسعودى - "أنه كان الأغلب عليه من الأخلاط السوداء" والذين روى عنهم المعرى أنه "كان أدبه أكثر من عقله" وهى التى وسمته فى نظر أبناء عصره بسمة الركاكة والجنون . .

بين أصحاب هذا المزاج أناس من نوابغ الشعر والفنون عرفوا بسرعة الملاحظة وسرعة الخاطر، أو عرفوا - على الأصح - بسرعة انتقال الخواطر وتعاقب الأفكار واستحضار المناسبات الخفية والمشابهات البعيدة التى تدركها سرعتهم ولا تدركها عقول السواد فى بطئها وأخذها بالسير المألوف . .

وقد تتفاقم هذه الخصلة فتصل إلى الجنون الذى يقول عنه القائلون أنه يخلط بين الشرق والغرب ويقحم الأحاديث فى غير مواضعها ومناسباتها

لسرعة وثبه من كلام إلى كلام ومن معرض إلى معرض، ولخفاء أوجه المناسبة بين موضوعات تفكيره على الذين يستمعون إليه.

ولكنها إذا هى لم تبلغ إلى حدها الأقصى المشاهد فى أعراض الجنون كانت خصلة نافعة للشعراء والمصورين بما تقرب لهم من المشابهات البعيدة وتبرز لهم من فوارق الأفكار الدقيقة وظلال الأشكال المستسرة، إذ لا يلزم من سرعة تفكيرهم أنهم يخطئون التفكير ويجيئون به مقتضبًا أو مشوهًا على غير استواء. فإنهم فى هذه الخصلة كالآلة التى تنطلق بالصور المتحركة فتعرض لك فى لمحة ما يعرض فى برهة، والمناظر بعد واحدة والنسبة بينها كلها على استواء واحد. أو هم كالمجهر المكبر الذى يرى الأشياء كلها أكبر مما تراه العين المجردة وهى بعد صحيحة الأبعاد مستقيمة الأوضاع، والعلم يحتاج إلى التكبير فى درس الأشياء ويحتاج إلى مثل هذا التكبير فى درس النفوس فليس كل ما دق الشعور به عن الناس عامة باطلا معيبًا، ولا كل ما خفى على العين حقيقًا بالتجاهل والإخفاء.

إنما يدرك الخطأ أصحاب هذا المزاج فى الغالب من ناحية واحدة هى ناحية ضبط الإحساس أو ناحية التفريق بين الخواطر وإحساساتها التى تناسبها.

فقد زعموا فى الأساطير أن السحرة الأقدمين كانوا إذا فكروا فى جنى يريدونه حضر بين أيديهم بغير استدعاء ولا انتظار إشارة.

فلك أن تقول أن ما زعموه حقيقة لا أسطورة، وأن السحرة الأقدمين موجودون فى كل زمان لأنهم هم بأعينهم سحرة الفن من أصحاب ذلك المزاج.

يخطر لهم أن صديقًا مات فما هو إلا أن يومض فى ذهنهم هذا الخاطر حتى يثب معه الحزن الذى يحزنه الصديق على صديقه، أو بعبارة أخرى يثبت معه الجنى الملازم لخاطر الموت بغير استدعاء ولا انتظار إشارة.

وقد تسنح لأحدهم الفكرة فما هى إلا أن تتـارءى فى خياله حتى يقترن بها الإحسـاس الذى يناسبهـا من خوف أو غضب أو فرح أو اغـتباط، ثم لا يستطيع أن يـضبط حركـة إحساسـه ولا أن يصرف عنه الخالجـة النفسـية التى أيقظتها فـيه هذه الفكرة، فكل شر مظنون فهو عنده كالنشـر المحقق على حد قول شاعرنا:

وإذا ما ظننت شيئًا فخفه رب شر يقينه مظنونه

وربما كان أحدهم على قمة جبل فيـسنح له خاطر السقوط منه فسرعان ما يهـب فى نفسـه شعور الوجـل والاضطراب كأنه قـد سقط فـعلا، يم لا يستطيع دفع شعـوره ولا يهدئ من روعه علمه بأنه مسـتقر على الأرض تاج من خطر الوقوع الموهوم! وربما سنح له شبح الأفعى فتفاجئه الرهبة من سمها الناقع ولو لم يكن فى موضع نظرقه كاف لتحريك الإحساس وجيشانه وتمثيله لخيـاله فى مثل لمح البـصر، ثم لا توجد عنده القـدرة على رد إحسـاسه إلى نصابه والهيمنة على حـركات نفسه. فهو كأولئك السحـرة فى قوة الاستدعاء لولا أنه ينسى الإشارة التى يصرف بها الشياطين فتلتوى عليه وترديه!

وهذا هو مورد الخطأ على أصحاب ذلك المزاج

ولكنك ترى أنه ليس خطأ فى الخاطر ولا فى الإحـساس الذى يلازمه، فالخـاطر صحيح والإحسـاس كذلك صحيح وإنما الخطأ أن الإحـساس يجىء قبـل الأوان أو فى غيـر الأوان. وقد يعـد ذلك عيـبًا فى العلم أو فى تدبـير المعاش، أما فى الفن فلا عيب فيه. لأن الفنان أحوج ما يكون إلى استحضار الشعور فى غير مـوعده وتمثيل العاطفة كلما دعته حاجـة عارضة إلى تمثيلها. فهذه الخصلة قد تؤذيه فى معاشـه وقد تؤلمه وتشقيه، ولكنها لا تستلزم الخلل فى تفكيره وعـاطفتـه إلا منم حيث التكبيـر والتجسـيم، وقد يكون التكبـير والتجسيـم ألزم لإظهار الخفى وتقريب البعيـد من نظرة القسط والهدوء، ولا سيما فى الفنون.

ومع كل هذا يجب أن نذكر أن آمن شيء فى الحكم على هذه الأمزجة وأشباهها هو ألا تركن كل الركون إلى قاعدة مقررة فى تقدير أعمالها وأحوالها، وألا تزال مترقبًا منها للمفاجآت والغرائب فى كل لحظة. فقد يجتمع العنف العصبى والوداعة العصبية فى إهاب واحد. وقد يعنف اللطيف ويلطف حسبما يطرأ عليهما من الطوارئ، وهذا الذى تراه اليوم يتوقد ذكاء وفطنة قد تراه فى بعض حالاته خابى الذهن كليل الفهم لا يعى عنك ما تقول، وهذا الذى يقيم القيامة للصغائر التوافة قد تراه وقتًا ما وهو مستخف بالعظائم لا يبالى ما كان منها أو ما يكون . . وأنت تسأل: أفى تركيبهم تناقض؟ فلك أن تقول نعم ولك أن تقول لا. لأن التناقض موجود فى ظواهر الأفعال غير موجود فى بواطن المزاج، فمن كانت تقيمه الهنة الضعيفة وتقعده إذا هى لمسته وبلغت منه حرى ألا يبالى الحوادث الجسام إذا هى لم تلمسه ولم تبلغ منه، فالمعول فى ثورته وسكينته على ما يباشر حسه ويلامس أعصابه. لا صغير إلا وهو خطير مثير إذا أزعجه وملأ إحساسه، ولا خطر إلا وهو هين طفيف إذا غاب عن وهمه وأعفاه من رؤيته، فهو الدهر بين تبرم وفزع من توافه الأشياء وطمأنينة وسخر من قوادح الخطوب.

ويحتاج الأديب أحيانًا إلى هذا التناقض كما يحتاج إلى استحضار الإحساس فى غير أوانه، أو يحقق لنا أن نقول أن شاعرنا خاصة قد استفاد من هذا التناقض مضاء وحدة فى ملكة السخر التى اشتهر بها وبلغ فيها أوجه، فإن النقائض والمفارقات ألزم لوازم هذه الملكة بعد دقة الملاحظة. وها هنا معدن النقائض والمفارقات التى يعانيها الساخر فى نفسه وقد يستغنى بها عن مراقبة غيره . .

كان ابن الرومى ساخرًا ولا جرم. كان شاعر النقائض فى عصر النقائض، وكان شاعر الفطنة الوحية فى عصر الرياء الشائع بين ما هو كائن وبين ما يدعى ويستوجب. فلا جرم يسخر وعناصر السخر فى نفسه وفى

زمنه! وقدرة السخر فى قلبه وفى عقله!. ولا جرم يسخر وهو مهيأ للسخر فيما عدا ذلك بتعدد أصوله وتوزع أهوائه وعصبياته. فإن صاحب العصبية الواحدة خليق أن يتحيز ويتنطس ويغلو فى الجد والمرارة، ولكن صاحب العصبيات الكثيرة لا يستطيع أن يفعل ذلك ولا يسعه إلا أن يستخف ويضحك من تلك الدعاوى وتلك المظاهر التى يضعها غيره من الناس موضع الجد والقداسة.

وها هنا شاعر ينتمى أبوه إلى الروم وتنتمى أمه إلى الفرس ويدين هو بدين العرب وينتسب فى ولائه إلى أبناء النبى العربى ويتقاسم ولاءه عدوان لدودان من العباسيين والطالبيين. فأين تكون العصبية وأين تكون العصبية وأين يكون المطاعن والمثالب؟ ثم أين يكون التصديق الأعمى وأين يكون التكذيب الأعمى. لن يسعه هو إذا اشتجرت مفاخر الروم والفرس والعرب والطالبيين والعباسيين واختصمت بينهم العصبيات والمنافسات إلا أن يبسم فى كل صوب بسمة العطف والدعابة، وأن يصبح على غير قصد منه عظيم الاستعداد للتسامح والكفاهة: كالذى يختصم إليه بنوه ويدعى كلهم ما يدعى من فضله وعيوب إخوته، وكل ما فيهم من فضل وعيب هو من لحمه ودمه ووشائج حبه وحنانه . .

فقد اجتمع لابن الرومى إذن من عناصر السخر ما لم يجتمع لأحد فى عصره: اجتمعت له دقة الملاحظة والإحساس وعمق الشعور بالمتناقضات فى نفسه وفى زمنه، وسعة النظر إلى الفوارق وسماحة العطف التى تقابل مرارة العصبية. فهو ساخر لا يبارى فى سخره، وعابث مطبوع على العبث بكل شىء حتى صحبه ونفسه. يستخدم السخر فى الهجاء والمديح والمطايبة والمعاتبة، ويعرض لك فى متحفه الكبير تلك الصور الهزلية التى لا مثيل لها فى شعر شاعر واحد من شعراء العالم كله، ثم لا يأنف أن يريك بينهما صورة له بل صوراً شتى لا يعوزها حظ من العناية وأمانة الصناعة.

فهذا الوجه الذى فصل للصلاة والتعبد فى الفلاة وجه من هو؟ إنه وجه ابن الرومى فيما صوره لنا حيث يقول:

شغفت بالخرد الحسان وما يصـ ـلح وجهى إلا الذى ورع
كى يعبد الله فى الفلاة ولا يشـ ـهد فيها مشاهد الجمع!

ومن هذا الغائص الذى تعلم السباحة ليغوص لا ليسبح، أو هذا الخائف المراقب الذى يمر بالماء فى الكوز مر المجانب؟ إنه هو ابن الرومى أيضًا حيث يقول عن نفسه:

وكيف؟ ولو ألقيت فيه وصخرة لوافيت منه القعر أول راسب
ولم أتعلم ق من ذى سباحة سوى الغوص، والمضعوف غير مغالب
فأيسر إشفاقى من الماء أنن أمر به فى الكوز مر المجانب
وأخشى الردى منه على كل شارب فكيف بأمنيه على نفس راكب؟

وابن الرومى أيضًا هو ذلك المنهوم الذى يشره إلى الطعام حتى فى الأحلام، ويأسف على أن يذاد عنه ولو فى المنام:

ولقد منعت من المرافق كلها حتى منعت مرافق الأحلام
من ذاك أنى ما أرانى طاعمًا فى النوم أو متعرضًا لطعام
ألا رأيت من الشقاء كأننى أثنى وأكبح دونه بلجام!

وابن الرومى كذاك هو الشيخ الفانى الذى لا ينسبه هم الشيخوخة أن يتهكم بنفسه ويحمد الله على زيغان بصره، لأنه بركة تجعل الشخص شخصين فى نظره

وبورك طرفى فالشخوص حياله قرائن من أدنى مدى وهى فرد

هذا مثاله من سخره بنفسه. أما سخره بغيره فله فى أفانينه الكثيرة ومعانيه الغريبة ما يقوم بديوان كامل، وبراعته فيه طبقة لا تعلوها طبقة فى

نوعها ويندر أن يدانيها فحول الساخرين فى المشرق والمغرب، فله فى أحداب كان يضايقه ويترصد به أمام داره ليتطير منه:

قصرت أخادعه وطال قذاله ... فكأنه متربص آن يصفها

وكأنما صفعت قفاه مرة ... وأحس ثانية لها، فتجمعا

وهى براعة لا نظير لها فى وصف الشكل والحركة ولا فى تضمينهما هيئة السخر التى عمل فيها الشاعر عمله المركب ليتم فيها نصيب العين والضحك والخيال. فصورة الرجل وهو يتهيأ لأن يصفع ثم تيجمع ليتقى الصفعة الثانية هى صورة الأحدب بنصها وفصها لا يعوزها الإتقان الحسى ولا الحركة المهينة ولا الهيئة الزرية ولا التأمل الطويل فى ضم أجزاء الصورة بعضها إلى بعض حتى يتفق التشبيه هذا الاتفاق.

وله فى معلم صبيان مغن:

أبو سليمان لا ترضى طريقته ... لأنى غناؤ ولا تعليم صبيان

له إذا جاوب الطنبور محتفلا ... ضرب بمصر وصوت فى خراسان

هواء كلب على أوتار مندفة ... فى قبح فرد وفى استكبار هامان

ونحسب العين فكيه إذا اختلفا ... عند التنغيم فكى بغل طحان

وله فى جحظه وكان مغنيًا جاحظ العينين:

تخاله أبدًا من قبح منظره ... مجاذبًا وترا[1] أو بالعًا حجرا

كأنه ضفدع فى لجة هرم ... إذا شدا نغمًا أو كرد النظرا

وله فيه:

نبئت جحظة يستعير جحوظه ... من فيل شطرنج، ومن سرطان

وارحمتا لمنادميه تحملوا ... ألم العيون لذة الآذان

(١) وتر القوس لا وتر العود.

وله فى مغن:

أنك لو تسمع ألحانه ... تلك اللواتى ليس يعدوها

لخلت من داخل حلقومه ... موسوسًا يخنق معتوها[1]

وله فى مغنية:

تضغط الصوت الذى تشدو به ... غصة فى حلقها معترضة

فإذا غنت بدا فى "جيدها" ... كل عرق مثل بيت الأرضة

وله فى مغنية أخرى:

صوتها بالقلوب غير رفيق ... بل له بالقلوب عنف وبطش

فإذا رققته بالجهد منها ... خلت فى حلقها شعيرًا يجش

وله فى صاحب لحية:

لو غاص فى الماء بها غوصة ... صاد بها حيتانه أجمعا

أو قابل الريح بها مرة ... لم ينبعث فى خطوه إصبعًا

وله فى أبى حفص:

إن أبا حفص وعثنونه ... كلاهما أصبح لى ناصبا

قد أغربا بى يهجوانى معًا ... وحدى وكان الأكثر الغالبا

إن كان كفؤًا لى فى زعمه ... فليعتزل لحيته جانبا!؟

وله فى رجل له منظر ولا أدب عنده:

طول وعرض بلا عقل ولا أدب ... فليس يحسن إلا وهو مصلوب

وله فى أكول مضاغة:

---

(١) البيتان غير موجودين فى الديوان المخطوط.

بعض أضراسه يكادم بعضا ... فهى مسنونة بغير سنون
لا دؤب إلا دؤب رحاها ... أو دؤب الرحى التى للمنون
لا تعطل رحاك يا ابن سليما ... ن فليس الثواب فيها بدون
قسمًا لو وقفتها للمساكيـ ... ـن لما مسهم غلاء الطحين
ما ظننت الأنساب يجتر حتى ... كنت ذاك الإنسان عين اليقين

وله فى قصير أعور أصلع:

أقصر وعور ... وصلع فى واحد
شواهد مقبولة ... ناهيك من شواهد
تنبئنا عن رجل ... مستعمل المقافد
أقماه القفد فاضـ ... ـحى قائمًا كقاعد

وله فى قصير:

على أنه جعد البنان دحيدح ... إذا ما مشى مستعجلا قليل: يدحرج

وله فيمن هجاه:

رقادك لا تهسر لى الليل ضلة ... ولا تتجشم فى حوك القصائد
أبى وأبوك الشيخ آدم تلتقى ... مناسبنا فى منسب منه واحد
فلا تهجنى حبسى من الذم أننى ... وإياك ضمتنا ولادة والد

وله فى بخيل:

يقتر عيسى على نفسه ... وليس ببراق ولا خالد
فلو يستطيع لتقتيره ... تنفس من منخر واحد

وله فى أصلع:

فوجهه يأخذ من رأسه أخذ نهار الصيف من ليلة

وله من أمثال ذلك ما يطول بنا إحصاؤه ولا نرى هنا فائدة من الإسهاب فى تكرار شواهده

وأبرع ما يكون سخره كما ترى إذا هو شبه لك صورة محسوسة أو خلق لك من خياله صورة معنوية، فإنه يحكم التشبيه ويحكم خلق الصورة فيضحك بالمقابلة بين الشيء وشبيهه ويضحك بما تتخيله من المنظر الغريب حين يعمد إلى خلق الشكول المعنوية، كصورة الأحدب مثلا أو كصورة الرجل "المستعمل المقافد" . . الذى يضرب فى كل مكان صالح منه للضرب، فيصلع لقفده فى موضع شعره ويقصر لكثرة الطرق على رأسه ويعور لضربه على عينه، وحركة الأبيات نفسها حين تتلى على عجل كحركة الصفحات ما تنى نازلة صاعدة كما أنبأ عنها فى تلك الأبيات

أو كصورة الرجل الذى لا نفع له إلا أن يصلب لأنه بذاك يظهر أحسن ما فيه وهو عرضه وطوله، أو كصورة المغنى الذى تتراءى عيناه الجاحظتان كعينى الضفدع "الهرم" فى لجة يكرر النظر ويغنى وفمه فى الماء!

وكان فضلا عن هذا لا تفوته من الأغراض فائتة فى اللفظ ولا فى المعنى ولا فى التصوير: ألق بالك مثلا إلى كلمة "جيدها" فى هذا البيت:

فإذا غنت بدا فى جيدها كل عرق مثل بيت الأرضة

فلو أن ساخراً غير مطبوع على السخر أراد هذا المعنى لاختار كلمة غير "جيدها" للمبالغة فى التقبيح والتشويه، ولكنك تنظر فترى أصلح الكلمات فى هذا الموضع هى الكلمة التى توهمك الحسن وتحضر لك المناقضة التامة بين الوهم والصورة المشهورة، فيستوفى طرفًا النكتة ويبدو لنا الفرق المضحك بين الجيد وبين الأرضة، كما نضحك من الفرق الذى يبدو لنا إذا وقف القزم إلى جانب العملاق . .

وتأمل كلمة "طحان" فى هذا البيت:

وتحسب العين فكيه إذا اختلفا عند التنغم فكى بغل طحان

فليس تمام القافية وحدها بهذه الكلمة بل الصورة المعنوية هى التى تمت بها أحسن تمام. لأن السخر لن يستوفى فى هذا التشبيه إلا إذا تمثلنا فى موقف الغناء الممتع بغلا من بغال الطحانين العجاف الجياع يتنغم ويستكبر بأنغامه استكبار هامان، ولو كان بغلا من البغال الفارهة المترفة لنقصت الصورة وفترت فيها قوة السخر وقوة التشبيه. وقس على ذلك "الشيخ" آدم، أو قس عليه سائر الأبيات والصور.

وسيأتى تفصيل الكلام على ملكة التصوير فى شعره عند الكلام على عبقريته والصلة بين فنه وبين الطبيعة والحياة.

***

وليس يكفى أن نقول أن ابن الرومى كان ساخرًا بارع التصوير لنعلم كل شىء نحب أن نعلمه عن سخره. فإن السخر يتنوع حتى لا يتفق فى الباعث الذى يوحيه ولا فى العبارة التى تؤديه. وأدباء "النفسيين" كل يقسمونه إلى التهكم والعبث والمجانة والفكاهة، ويجعلون كل قسم منها جميعًا نوعًا من "الضحك" قائمًا بمفرده مستقلا بصبغته وغرضه. والأقرب إلى فهم الموضوع عندنا أن نوحد الضحك ونجعل الاختلاف فى الخلائق والحالات النفسية. فنفرق بين ضحك الخليقة الكريمة وضحك الخليقة اللئيمة، وبين الضحك فى حالة الرضى والعطف والضحك فى حالة الغضب والجفاء، ثم نفرق بين العبث فى الحالين المختلفين من النفس الواحدة: فبعث النبيل الأريحى غير عبث الوضيع الخبيث، وتهكم الصارم الأبى غير تهكم الرخو الذليل. وفى الدنيا مَن التهكم مبقدار ما فيها من المتكمين، نعنى بذلك أن التهكم ليس "نوعًا" واحدًا من الضحك ولا شكلا واحدًا من الملكات، ولكنه أنواع

تختلف باختلاف الحالات والخلائق والأساليب. فخير لنا أن نرجع إلى اختلاف هذه الحالات من أن نجمع التهكم كله فى باب واحد وصبغة واحدة، وهو ليس كذلك.

وما من ضاحك إلا وهو قابل لجميع هذه الحالات فى مختلف الأطوار، فهو متهكم حينًا وعابث حينًا ومازج بين هذين الشعورين فى بعض الأحيان، كما يتفق كثيرًا أن يمزج الشعوران المتغايران.

فإذا قلنا أن ابن الرومى ساخر فقد نفى أن نعرف نوع السخر لنعرف نوع الطبيعة التى توحيه، فإن المرء - كما تقدم - يكون ساخرًا وهو طيب سليم الطية وساخرًا وهو خبيث مظلم السريرة. فمن أى فئات الساخرين كان ابن الرومى وأى خليقة من الخلائق كانت تهيمن على سخره؟ أنسكله فى الطيبين أو فى الخبثاء وفى الخلائق الشفافة القويمة أو فى الخلائق الكدرة العوجاء؟

إننا نسأل هذا السؤال ونبتسم.

نبتسم كما قد نرى الطفل اللعوب يعدو وراء مضحكة من المضاحك أو فرجة من الفرج ثم يسألنا السائل فى جد ورزانة: ما هى العداوة التى يكنها ذلك الطفل لمن يعدو خلفهم ويلهو بمعابثهم . . ! فأى عداوة وأى صداقة؟ وأى خباثة وأى طيبة؟ هنا مضحكة وكفى . . . ! ولن يفهم الطفل فى منطقة إلا أنه يستطيع هنا أن يضحك، فلم لا يضحك؟ أى نعم لم لا والضحك لذيذ والإغراء به حاضر؟!

فابن الرومى هو ذلك الطفل فى سخره وضحكه وتهكمه وهجائه، لسنا نفهمه حق فهمه إلا إذا تمثلناه أبدًا فى جلنة الإحساس واخضراره على هيئة الطفولة النامية التى لا تجف ولا تشيخ وإن جفت المفاصل وشاخت الأوصال، وستمر بنا عقد كثيرة من عاداته ومواهبه لا تدرك ولا تفسر إلا على اعتبار واحد وهو أنه طفل كبير لا يفرغ من الطفولة طول حياته. فسل ما

شئت عنه ولكن سؤالك عن الطفولة النامية بمزيتها ونقصها وطيبها وخبثها ورضاها وغضبها، صدره ولكن لا تنس أن الأدب السيء خلة غير خلة الطبيعة السيئة، وأن ليس الكظم والسكوت علامة على الكرم والصفح الجميل فى كل حال.

وأجهل الناس بالطبائع الإنسانية من يصف امرءاً كابن الرومى بالحسد والضغنة لأنه كان يألم ويتحسر لحرمانه ويعجب لحظوة الجهلاء بالخير دونه، إذ ليس الحسد أن يألم الإنسان لأنه محروم مزءود عن النعم التى يشتهيها ويتذوقها ويعرف معنى المتعة بها، ولا أن يرى - مصيبًا أو مخطئًا فى رأيه - أنه أجدر وأليق بتلك النعم ممن لا يحسبهم أنداده فى الفضل والذكاء وأقرانه فى المناقب والمآثر، كلا، ليس هذا هو الحسد المذموم المعدود فى ردىء الصفات، وإنما الحسد المذموم هو خلق كريه يبتلى به المرء فلا يطيق النعمة عند غيره وإن كانت عنده ولا يستريح إلى شعور الناس بالسعادة لانقطاع ما بينه وبينهم من رحم العطف والمشاركة فى الأفراح والآلام.

فالحسد نضوب فى العاطفة وابن الرومى أبعد إنسان من نضوب العاطفة، وتحجر فى الشعور وليس للتحجر فى خلائق ابن الرومى وأمثاله مكان، والحاسد لا يجعل الخير مقرونًا بالفضل والنعمة مرهونة بالمناقب، ولا يطلب المتعة والجاه لأنه أقدر وأجدر ممن ينعمون بهما فى الدنيا بغير حق ولا معرفة، إذ التفكير على هذا النمط غريب عن جبلة الحاسد الذى إنما يريد الخير لأنه يريده وكفى! ثم لا يكلف عقله أن يدلى له بحجة فى طلبه غير حجة الأثرة الحيوانية التى لا تسأله سببًا والأنانية الصماء التى لا تعقل ولا توازن ولا تتدبر، ويسوءه أن ينعم الناس لأنه يرى النعمة وقفًا عليه ويرى أن كل ما سر غيره مسلوب منه، وليكن ذلك السرور علمًا وهو لا ينافس العلماء أو صلاحًا وهو لا يشبه بأهل الصلاح أو شرفًا وهو لا يصلح إلى الشرف، فحسبه أنه سرور فى عرف أحد من الناس وحظ ينعم به غيره ويتملاه ليكون

ذلك السرور ثأراً عنده ويكون تنغيص المسرور به من همه وإربه. وهذا هو الحسد الذى ليس فى طبيعة ابن الرومى ذرة منه، بل ليس ما عنده إلا نقيضه وضده . .

فقد كانت ألذ متعة التى وصفها تلك المتع التى غنمها مع صحبه وسعد بها كما سعد غيره، وربما كان لا يلح ذلك الإلحاح فى طلب السمك الذى يحبه إلا ليسرع به إلى صديق يدعوه إليه ويشركه فيه:

متى عهدك بالكرخ وبالشبسوط والفرخ
وبالبكر التى لم تشق بالنار ولا الطبخ

وقد كان شعوره بحرمان غيره كشعوره بحرمان نفسه ولم لم تكن بينه وبين المحروم صداقة ولا علاقة. فكان يرثى للحمال المكدود إذا بصر به فيصف خاله وصف مشفق عليه يألم لجميع ألمه.

رأيت حمالا مبين العمى يعثر فى الأكم وفى الوهد
محتملا ثقلا على رأسه نضعف عنه قوة الجلد
بين جمالات وأشباهها من بشر نامـوا عن المجد
وكلهم يصدمه عامداً أو ثائه اللب بلا عمد
والبائس المسكين مستسلم أذل للمكروه من عبد
وما اشتهى ذاك ولكنه فر من اللؤم إلى الجهد
فر إلى الحمل على ضعفه من كلحات المكثر الوغد

وما كان بينه وبين ذلكل الحمال من صلة حركت فيه ذلك الإشفاق عليه والعجب من صبره إلا أنه كان يؤثر مقاساة الجهد على مقاساة اللؤم، وبرح العناء على التكسب بمدح البخلاء، ويريح نفسه مما يعانيه الشاعر ويفتقر إليه

من استجداء النوال وذل السؤال، وهى صلة لا تتحرك بها العاطفة إلا فى نفس مجبولة على العطف والتأسى بأحوال الكبير والصغير والرفيع والوضيع.

"وكان هو وصديق له متصلين برجل جليل من حاشية السلطان فكان المتصل به يسرف على صديقه فى الاستخفاف به" فقال ابن الرومى يلوم ذلك الرجل الجليل على استخفافه بصدقه:

أحب ان تشتمنى ... بوزن ما تشتمه
أو توقع الإكرام لى ... وللذى أكرمه
فإن ما تفعله ... بحضرتى يحشمه
وإننى يظلمنى ... كل امرئ يظلمه

ولو رجل غير ابن الرومى فى موضعه كان بنفسه حسد أو دخيلة سوء لسره أن يخص بالجفاوة دون زميله والتمس الزلفى عند ذلك الرجل الجليل بموافقته على مزاحه واستخفافه. لكنه كان فى الواقع كأبرأ الناس من حسد وأعظمهم سروراً بعطف صديق، بل كان الصديق مقدمًا عنده على الحبيب.

عرج على ذكر الصديق ... وعد عن ذكر الحبيب
كم مكثر لى مخبث ... ومقل قول لى مطيب

لأن العطف حاجة من حاجات قلبه وضرورة من ضروراته ووقاء له مما كان يرهقه ويشتد على صبره. فكان عطف الصديق يحيى نفسه ويخلقه خلقًا جديداً كما قال:

خليل أظل إذا زارنى ... كأنى أنشأ خلقًا جديدًا
أرانى وإن كثر المؤنسو ... ن ما غاب عنى وحيدًا فريدًا

فما كان الرجل خاسدًا ولا شبيهًا بالحاسد، وما كان إلا إنسانًا كسائر الناس يحب الخير لنفسه ولا يكرهه لغيره، بل ما كان إلا ذلك الطفل الكبير

الذى كأنه فى حده طعمه وقلة حيلته وقد فتح عينيه وفغر فاه إلى قطعة الحلوى فى يد غيره فبلغ ريقه وصاح فى براءة وصراحة لا تعرفهما طبائع الحاسدين:

لا تلومن حاسداً. ألم النفـ ـس من البخس يا أخى شديد!

وما حيلة المسكين فى شهوة قلبه وفى قلة حيلته وحوله؟ وكيف الصلدوف عن النعمة وما هو بزاهد فيها ولا بجاهل لقدرها ولا بغافل عن لذتها؟ أهو معصوم من الفتنة كما قد حرم نصيبه من النعمة؟ لا! بل إن فتنته لأشد وأضرى وأنه بالغبن لأحسن وأدرى:

يا ليت أهل العقل إذ حرموا عصموا من الشهوات والفتن
لكنهم حرموا وما عصموا فقلوبهم مرشى من الأحن
وهم أحس على بليتهم من غيرهم بمرارة الغبن

فمبلغ القول فى حسده أنه كان شديد الرغبة فى متع الحياة قليل الحيلة فى احتجانها، فإذا سميت هذا حسداً فقل إن ابن الرومى حاسد وقل أن الطفل الذى يتطلع إلى الحلوى فى يد رفيقه الصغير حاسد. وأضف إلى الحسد بهذه التسمية معنى جديداً لم يكن من معانى هذا الخلق البغيض الذميم.

***

ويقال فى حقده ما يقال فى حسده. فقد كان ساخطاً ولم يكن حاقداً، وألبون بعيد بين السخط والحقد. وإن التبست أعراض هذين الخلقين على طلاب الظواهر.

فهما خلقان متباينان وقد يكومنان فى بعض الأحيان متناقضين، فيسخط الإنسان بل يدوم سخطه وليس فى قلبه من الحقد أثر، وقد تكون كثرة سخطه

لكثرة استجابته للمؤثرات الجديدة الطارئة التى تتعاقب على حسه، أى لقلة حقده وقلة إصراره على البغض القديم.

والحقد توأم الحسد فى خلة الأثرة الحيوانية والأنانية الصماء، فلهذه الخلة يستكبر الحاقد الإساءة الصغيرة إلى نفسه كما يستكثر الحاسد النعمة القليلة على غيره، والسبب فى الحالتين واحد. وهو أنه لغلوه فى حب نفسه واستغراقه فى الأثرة الحيوانية لا يريد أن يساء هو ولا أن يسر غيره، وليس يعنيه أن يساء بالحق أو بغير الحق وأن يكون عاديًا فى هذه الإساءة أو معدواً عليه. فإن ذلك كله من وراء تفكيره وحسابه، ولا فرق عنده بين أن يظلمه الناس فى الإساءة إليه أو ينصفوه وبين أن يسيئوا إليه بالعدوان عليه أو بصده هو عن العدوان، فمن الحاقدين من يحقد على الناس لأنهم أبوا عليه أن يضرهم ليستفيد من ضررهم ووقفوا بينه وبين مصلحته ولو كان وقوفهم هذا من محقهم ولإنقاذ حياتهم!! وهو لا يفكر بالعدل ولا يكره العدوان لأنه جور وعسف ولا يعرف من الكراهة إلا أن يكره ما يسوءه كأننا ما كان وبالغًا ما بلغ فيه العذر والاضطرار، وهذا عير الشعور الذى يشعر به المرء حين يعتدى عليه بغير الحق فسيوءه ذلك ثم يتوالى العدوان فيتوالى الاستياء ويطول السخط والامتعاض، فإن من النبل أ ن يغضب المرء للعدوان وقع به أو وقع بغيره فإن لم يرتفع بغض العدوان إلى مقام النبل فهو لا يهبط بصاحبه إلى ما دون منزلة العذر المعقول والطبع المستقيم.

من هذا القبيل كان شعور ابن الرومى حين توالت عليه أسباب السخط فتوالى سخطه وغضبه وتواصلت شكواه وضجره، فكل سبب كان يثيره فهو سبب "أخضر" لا مشابهة فيه لأسباب الحقد التى يطول ثواؤها بالضمير حتى تفسد وتتعفن أو تيبس وتتحجر.

وما كان لطبيعة مهتاجة كطبيعة ابن الروم يطاقة بضرب من الإحساس غير ذلك الذى نسميه "بالاخضرار" لجدته وحرارة نبضه وسرعة أثره وسرعة

زواله، وأنى لمثل هذه الطبيعة إصرار الحقد وتدبيره وثباته على ما فيه بين تقلب الحوادث وتجدد المسرات والمصائب؟ كل ما تطيقه هذه الطبيعة من الشعور هو ذلك الشعور الذى تحضرها أسبابه وتلح عليها مؤثراته، فإذا كانت الأسباب ما تزال مؤلمة مغضبة فالألم دائم والغضب لازم والناس يقولون حينئذ أنه الحقد وأنه الضغينة وأنه خلق ذميم وطبيعة رديئة، لأن الحقد هو الاسم الذى يطلقه العامة على الاستياء إذا دام واتصل وتوالت موارده فتوالى وجوده، ولأنهم ربما بلغوا من بلادة الأنانية وقلة الإحساس بمعنى العدل أن يسيئوا إلى السمتضعف المخذول ولا يتوقعوا منه الألم والاستياء . . ولم لا؟ ألا يسرهم أن يعبثوا به ويتماجنوا عليه؟ فما باله إذن لا يسر بما به يسرون ولا يضحك هو كما هم يضحكون؟!

فكل ما كانت تطيقه طبيعة ابن الرومى من الشعور هو ذلك الذى تحضرها أسبابه وتلح عليها مؤثراته، فإذا غابت الأسباب وفترت المؤثرات نسى شعوره فى لمحة عين وانقلب إلى نقيصه، وفى قصته مع الأخفش عبرة لمن شاء أن يعرف ما وراء سخطه من الطيب والغفران والمودة، فقد صمد الأخفش ما صمد من الزمن يعبث به ويثقل عليه فى العبث حتى منعه أن يبرح بيته ويتصرف لمعاشه، فعاتبه ابن الرومى فلم يرعو وأنذره فلم يحفل وقال له يتوعده:

لا يأمنن السفيه بادرتى ... فإننى عارض لمن عرضا

عندى له السوط أن تلوم فى السـ ... ـير وعندى اللجام أن ركضا

وما توعده إلا بعد لجاج ومحال وصلح واعتذار، فلما لم ينفعه ذلك هجاه وأقذع فى هجائه كعادة أهل الزمان فى كل هجاء، فعاد الأخفش إليه يسترضيه ويستعطفه فرضى وعطف، وأسرع فنسى ثقيله ونسى الهجاء وأقبل يقرظه ويطريه ويبالغ فى تقريظه وإطرائه غير تارك لنفسه بقية لوتر قديم ولا لوتر مستأنف:

ذكـر الأخـفش القـديم فـقلنا إن للأخـفـش الحـديث لفـضـلا
وإذا مـا حكـمت والروم أهـلى فى كـلام مـعـرب كنـت عـدلا
أنا بين الخـصـوم فـيـه غـريب لا أوى الزور للـمـحـاباة أهلا
ومـتى قـلت باطـلا لم ألـقب فـيـلسـوفـا ولم أسـوم هـرقـلا
بدأ النـحـو ناشـئـا فـغـداه أحـدث الأخفـشين فـاقاد رسـلا
. . . .
يا ظمـاء إلى الصـواب ردوه يسـقكم بـالصـواب عـلا ونهـلا
هو بحـر من البحـور فـرأت ليس ملحًا، وليس حاشـاه ضحلا

وأطنب فى ذلك حتى دعاه مقومه وخدينه:

قل له يا مـقـومى وسـمـيـى وكنـيى ومـن غـدا لى شـكلا
قـد أردت الإطناب فيـك فقـالت لى غـاياتك البـعـيدة مـهـلا
ورأيت اليـسـيـر يكـفى من الحـ ـلى إذا النصل كـان مـثلك نصـلا

إلا أن الأخفش لم يصف هذا الصفاء ولم يكن إلا عابثًا فى صلحه كما كان عابثـا فى خصامه، فعـاد إلى شنشنته معه وعـاد ابن الرومى إلى سلاحه الذى نبذه حتى حسب صاحبه أنه حطمه، فقال يذكره:

حـذار عـرامى أو نـظار فـإنما يظللكـم قطع من الزجـر مـرسل
ولا تحـسبن الـصلح أنصـل آلتى ولا أننى فى هـدنة السلم أغـفـل
ولكننى مـسـتجـمع الحلم مغبـر أفـوق نـبلـى تـارة وأنصـل
فـإن هاجت الهـيجـاء أو عـودها على بـدئهـا لـم يلق منى أعـزل

وليس يغر الحاقد هذا الغرور ولا الناس يصنعون هذا بمن يعلمون حقده ويحذرون منه تصميم نيته.

واقلب ابن عمار على ابن الرومى وابن الرومى كما عرفت من مأخباره هو الذى أعانه بما فى وسعه وقربه من الرؤساء أصحابه وجعل له سببًا إلى رزقه، فجزاه انقلابًا بانقلاب ومسبة بمسبة، ولم يفعل ذلك إلا بعد أن تحيل جهده على عطفه واستلال حقده وحسده فلم يفلح، وكتب إليه يستعيده إلى سالف مودته:

أيها الحاسدى على صحبتى العسـ ـرى وذمى الزمان والإخوانا
حسدًا هاجه على ثلب شعرى ولقائى معبسًا غضابا
وانتقاصى مع العدو وقد كا ن يرى لى نقائصى رجحانا
ليت شعرى ماذا حسدت عليه أيها الظالمى إخائى عيانا
أعلى أننى ظمئت وأشحى كل من كان صاديًا ريانا
أم على أننى أمشى حسيرا وأرى الناس كلهم ركبانا
أم على أننى ثكلت شقيقى وعدمت الثراء والأطانا
عد كريمًا إلى كريم كما كنـ ـت وإلا لقيتنا منى هوانا
لا عقابًا بما تقول ولكن بجفاء أردفته هجرانا
وتيقن أنى مقيم على العهـ ـد حياتى، وخذ بذاك ضمانا
لا أعد الذنوب منك ذنوبًا بل هدايا مقبولة وحنانا

فلم يجد ذلك فى استعطاف ابن عمار ولم يثنه عن عدائه وثلبه . . ثم تقرأ فى ديوان ابن الرومى فترى فيه قصيدة قالها قبل موته بخمسة أيام أو ستة يمدح الجراح على لسان ابن عمار رهذا لتيسير منفعة كان يرجوها لديه.

ونظن أننا فى غنية عن سرد القصص والأمثلة على عطف ابن الرومى وغرارته وطيب قلبه، فقد كان العطف كما أسلفنا حاجة من حاجات طبعه وضرورة من ضرورات حياته، وآية ذلك بينه فى شعره كله وفى تفجعه على

أحبابه وشدة فقده لأهله، وقناعته منهم باليسير من المودة يأخذها حيث وجدها ويأسى عليها حيث لا يجدها، وهو القائل وقد صدق:

وإنى لبر بالأقارب واصل على حسد فى بعضهم وعلى بغض

ولقد آن أن نبذ تلك الطريقة العتيقة التى كان بعض الأقدمين يعتمدونها فى نقد الأخلاق وتسمية أسمائها والمقابلة بين المتشابه والمتخالف منهما، فإنهم تعودوا أن يأخذوا فيها بالأعراض دون الجواهر وبالظواهر دون المخابر، وكانوا ينظرون إلى السمات البادية ولا يظرون إلى ما وراءها من بواعثها . . فللغضب الدائم والحقد سمة واحدة فهما إذن خلق واحد! ومتى كان الشاعر كثير الذم والأنحاء على الناس فهذه حجة جديدة تضاف إلى سمات وجهه، فلا جدال إذن فى حقده ولا شك فى قبح سريرته وجنونه إلى الشر دون الخير والعداوة دون المودة . . فإذا اتفق مع هذا أنه شهد على نفسه بالحقد فقد بطل الجدال وحقت عليه الكلمة ونفذ فيه القضاء. ألا تراه ناقمًا مغتمًا؟ ثم ألا تراه هاجيًا لا يكف عن الذم والشتيمة؟ ثم ألا تراه يقر بذنبه ويصارح الناس بدفين بغضه؟ فماذا بقى بعد من أسباب الحكم غير أن يوصم وأن يدان؟!

لا يا قضاة.! بقى من أسباب الحكم كل شىء ولم يحصل لدينا بعد هذا كله سبب واحد يجوز لنا أن نعتمد عليه! بقى البحث فى أسباب نقمته وذمه وشهادته على نفسه، فإن هذه هى العناصر التى تتألف منها الأخلاق وليست ملامح الغضب ولا كلمات الشفاه. فغذا نحن عرفناها فذاك، أما إذا ظلت مجهولة فقد جهلنا كل سر ولم نعرف إلا ألوان الطلاء.

علام تدل النقمة؟

ثم علام يدل الاعتراف؟

إن الإنسان لينقم وهو من أشرف الناس فى نقمته، وأنه ليرضى وهو من أخبث الناس فى رضاه، وأن اعتراف المعترف لأحجى أن يبرئه من رذيلة المواربة والنفاق، وهى رذيلة لا تخلو منها طبيعة الحاسد أو طبيعة الحقود.

ويلوح لنا أن نقاد الأخلاق على هذا النمط لا يختلفون كثيراً من قضاة الزمن الغابر الذين كانوا يضربون "المتهم" ليقر بالذنب ثم يأخذونه بشهادته على نفسه . . فغاية الفرق بينهم أن نقاداً لا يضربون ولكنهم كذلك لا يسألون عن المنقود المسوق إليهم هل هو مضروب أو غير مضروب؟ ونخالهم يغتبطون بأن يساق إليهم مضروبًا معترفًا ليغنيهم عن البحث ويعفيهم من مؤنة السؤال والجواب!

وشهادة الإنسان على نفسه بالشر كشهادته لها بالخير كلتاهما لا قيمة لها ما لم يكن لها مصداق من الطبيعة والواقع. فابن الرومى قد شهد على نفسه بالحقد فقال وهو يتحدث بأخلاقه:

شكرى عتيد وكذاك حقدى للخير والشر مكان عندى

وقال:

وما الحقد إلا توأم الشكر فى الفتى وبعض السجايا ينتسبن إلى بعض
فحيث ترى حقدًا على ذى إساءة فثم ترى شكرًا على حسن القرض
إذا الأرض أدت ريع ما أنت زارع من البذر فيها فهى ناهيك من أرض
ولا عيب أن تجرى القروض بمثلها يا العيب أن تدان دينًا فلا تقضى

فهذا اعتراف صحيح يتلهف عليه القضاة: قضاة المحكمة العتيقة، ولكنه بعد ليس بالمهم فى البحث عن أخلاق الرجل لأن وراءه سراً هو الأهم فى هذا الصدد وهو الحقيق بأن يدار البحث إليه.

فبحث أن نعلم أولا لماذا شهد ابن الرومى على نفسه بالحقد هذه الشهادة، فإن الحقود لا يشهد على نفسه بحقده والمطبوع على الصراحة لا يكون مطبوعًا على الحقود. وصراحة ابن الرومى هنا تلفت النظر إلى أمر شاذ فى هذا "الاعتراف" وتدعونا إلى السؤال عن سره، وسره ليس ببعيد . .

فالرجل كان يدعى الحقد ليخيف الذين يستوطئون جانبه ويستسهلون إرضاءه بعد إغضابه، فما كان يذكر الحقد إلا وهو ينذر ويتوعد من طرف خفى أو ظاهر، ويخير الناس بين شكره وحقده ليغنموا شكره ويجتنبوا حقده. فهذه الدعوى عنده كتلك السحنة البغيضة التى ينتحلها بعض الحيوان للإخافة والتهويل حين لا يكون مخيفًا ولا هائلا فى الحقيقة . . وهو محتاج إلى دعواه حاجة الحيوان إلى سحنته البغيضة فى مترك الحياة.

وسبب آخر لاعترافه بالحقد أنه كان يتفلسف ويدرس الجدل ويتعاطى صناعة البرهان ويحب أن يمتحن قوته فى المنطق والفلسفة بقبيح الحسن وتحسين القبيح حسبما يبدو له من وجيه ومن تنازع الأقوال فيه، وتلك سنة كانت معروفة فى ذلك العصر يقيسون بها البلاغة ويقيسون بها قوة البرهان. فمدح ابن الرومى الحقد وذمه ولم يقصر بحجة الذم عن حجة المديح، وهو القائل فى ذم الحقد والرد على مادحيه:

ما مادح الحقد محتالا له شبها ... لقد سلكت إليها مسلكًا وعثا
لن يقلب العيب زينًا من يزينه ... حتى يرد كبيراً عاسيًا حجثا
قد أبرم الله أسباب الأمور معًا ... فلن ترى سببًا منهن منتكثا
يا دافن الحقد فى ضعفى جوانحه ... ساء الدفين الذى أمست له جدثا
الحقد داء دوى لا دواء له ... يرى الصدور إذا ما جمره حرثا
فاستشف منه بصفح أو معاتبة ... فإنما يبرئ المصدور ما نفثا
واجعل طلابك بالأوتار ما عظمت ... ولا تكن لصغير الأمر مكترثا
والعفو أقرب للتقوى وأن جرم ... من مجرم جرح الألباب أوفرثا[1]
يكفيك فى العفو أن الله قرظه ... وحيا إلى خير من صلى ومن بعثا

(١) فرث شق، وفرث الرجل ضرب كبده وهو حى.

شـهدت أنك لو أذنبت سـاءك أن ... تلقى أخاك حقـودًا صدره شرثا[1]
نعم وسـرك أن ينسى الذنوب معـا ... وأن تصـادف منه جـانبًـا دمـثـا
أنى إذا خلط الأقـوام صـالحـهم ... بسيء الفـعال، جدا كـان أو عبـثا
جعلت قلبى كطرق السبك من حسد ... يستخلص الفضة البـيضاء لا الخبثا
ولست أجـعله كـالحـوض أمزجـه ... بحفظ مـا طاب ما مـاء وما خبـثا

وهو القائل فى هذا المعنى:

يا ضـارب المثل المزخـرف مطريا ... للحـسـقـد لم تقـدح بزند وار
أصبحت خـصم الحق تهدم ما بنى ... والحق مـحـتج، وأنـت تمارى
أطربت غنـك لا سـمـينك ضلة ... واختـرت من خليقك غـير خـيار
شـبهت نفـسك والأولى يولونهـا ... آلاءهم بـالأرض والعـمـار
ورأيت حفظك مـا أتوا من صالح ... أو سيء - كـرمـا وعـتـق نجـار
وزعـمت فـيك طبـيـعة أرضـيـة ... يا سـابق الـتـقـرير بالإقـرار
ولقـد صـدقت ومـا كـذبت فـإنه ... لا يدفـع المعـروف بـالإنكـار
لكن هاتيك الطـبيـعـة فى الفـتى ... مما يـلظ علـيـه بالأسـتـار
ولصـمـتـه عن ذكـرها أولى به ... من عـدها فى الفـخر يـوم فخـار
فـينا وفـيك طبـيـعـة أرضـيـة ... تهـوى بنا أبـدًا لشـر قـرار
هبـطت بآدم قـبلـنا وبزوجـه ... من جنـة الفـردوس أفـضل دار
فتـعوضـا الدنيا الـدنية كـاسمـها ... من تـلكـم الجنـات والأنهـار
بئـست لعـمـر الله تلك طبـيـعـة ... حـرمـت أبانا قـرب أكـرم جـار

(١) الشرث من السيوف والأسنة المحدد وشرث الرجل غلظ ظهر كفه.

واستأسرت ضعفى بنيه بعدها فهمو لها أسرى بغير أسار
لكننا مأسورة مقسورة مقهورة السلطان فى الأحرار
فجسومهم من أجلها تهوى بهم ونفوسهم تسمو سمو النار
. . . . . .
عرفوا لروح الله فيهم فضل ما قد أثرت من صالح الآثار
فتنزهوا وتعظموا وتكرموا عن لؤم طبع الطين والأحجار
نزعوا إلى النجر الذى منه أتت أرواحهم، وسموا عن الأغوار

فابن الرومى القائل هذا هو ابن الرومى القائل ذاك . . وكأننا بقضاة المحكمة العتيقة يتحفزون للإدانة المبرمة ويبحثون بين أيديهم عن المجرم الذى دانوه فلا يجدون هنالك إلا متفلسفًا يقلب القضية على وجهيها، أو هرا مستضعفًا يزأر لأنه خائف لا لأنه مخيف . . أو يعلمون أن الرجل قد يستجمع سمات الغضب الدائم ولهجته ويعترف على نفسه بحقده ولا يكون بعد ذلك على شىء من الحقد كثير ولا قليل.

وجميع أخلاق ابن الرومى تنتهى عند البحث فيها إلى مثب هذه النهاية، فهو كما أسلفنا لا يعرف من الأخلاق إلا "الأخصر" الذى يجرى فيه الماء لوقته، أو هو لا يعرف من الأخلاق غلا ما يحضره سببه وتختلج فى صدره دواعيه:

أيندم ويثوب عن المعاصى؟
نعم! وحيث التوبة والندم. إذ
حتى متى نشترى دنيا بآخرة سفاهة، ونبيع الفوارق بالدون
معللين بآمال تخادعنا وزخرف من غرور العيش موضون
أيلهو ويقصف؟

نعم! يلهو ويقصف ويقول لمن يتوب ويندم:

لا تخلط الحب بالتقوى فتعطفنا على المقاسى عذاب الهجر والبين
ولم نبع قط دنيانا بآخرة ومثلنا لا يبيع النقد بالدين

أيسكر بعد إقبال المشيب وأدبار الشباب؟

نعم . .

فاعذر شراب المدامة شارب لتقصير أيام المشيب الأطاول

أو

فالآن حين أجد الشيب يطلبنى أبادر الشيب باللذات عجلانا

أم يقلع عن السكر بعد إقبال المشيب وأدبار الشباب؟ قد يكون ذلك خيرا . .

فدع شربها إذ أصبح الرأس مشرقًا محاذاة أن يصبح القلب مظلما
ولا ترينك السن والله والنهى على الشيب والإسلام واللوم مقدما

أيشح ويحرص على ماله؟

نعم . . فإنه

إذا لم يكن عندى سوى ما يكفنى فشحى عليه مثل شحى على عرض
لأنى متى أتلفته احتجت حاجة تذيل مصون العرض فى طلب القرض

أيجود ويسرف؟

نعم . . و:

لا تحملن هموم أيام على يوم لعلك أن تقصر عن غده

بل هو يسأل الله أن يقيه الشح ويلهمه الجود:

قنى يا إلهى شح نفسى فإننى أرى الجود لى حظًا وشيمتى البخل

وربما تعاورته الحالتان فى لحظة واحدة، فتراه حائر النفس ين الحرص والتوكل لا يطمئن إلى هذا حتى يثوب إلى ذاك:

وقضاء الإله أحوط للنا س من الأمهات والآباء
غير أن اليقين أضحى مريضًا مرضًا باطنا شديد الخفاء
ما وجدت امرءًا يرى يو قن إلا وفيه شوب امتراء
لو يصح اليقين ما رغب الرا غب إلا إلى مليك السماء
وعسير يلوع هاتيك جدا تلك عليا مراتب الأنبياء

أو قد يدركه الحذر او الأريحية فيحجم عن هجاء السلطان ويعلن سر إحجامه كأنه مطالب بهذا الإعلان:

لا أقذع السلطان فى أيامه خوفًا لسطوته ومر عقابه
وإذا الزمان أصابه بصروفه حاذرت رجعته ووشك مثابه
وأعد لؤمًا أن أهم بعضه إذ قلت الأيام من أنيابه

ذلك حين يساوره الخوف ويذكر الأريحية. فأما إذا ثارت بلابله واضطرمت لواعجه وملكه الغيظ فاجتاح حزمه وخوفه فهم أهجم هاجم على سلطان حديد ناب أو مفلوله؟ وهو الجسور فى هجائه على ما يخافه الجسور مغلوله؟ وهو الجسور فى هجائه على ما يخافه الجسور الذى لا يخاف.

فهو ابن ساعته وطوع الحاضر من إحساسه، و "النوبة الطارئة" هى المفتاح الذى يفض به كل ما استغلق من أسرار نفسه على الجملة، وما كان ف ينفسه من سر مغلق إلا وجدته هو معنى منهومًا بالغوص عليه والكشف عنه لقارئى شعره!

معيشته

عاش ابن الرومى حياته كلها فى بغداد، لا يفارقها قليلا حتى يعود سريعًا وقد نازعه إليها شوق وغلبه نحوها حنين، وكانت بغداد يومئذ عاصمة الدنيا غير مدافع: فيها كل محاسن العمار الواسع وعيوبه وكل رفاهة العمار الواسع وشقائه . . قصور تبلغ النفقة على بنائها وتأنيثها ألوف الألوف، ومتاجر يؤمها أصحاب القوافل من أقصى المشرق وأقصى المغرب، ومدارس ومكاتب وحلقات للمذاكرة يجلس فيها الأئمة فى كل فرع من فروع العلم والأدب، وإلى جانب ذلك بيوت فى كل منزه ومرتاد على النهر أو فى الخلاء للهو والمعاقرة والسمر يغنى فيها القيان ويرقص الجوارى ويغشاها العيلة والسواد، ويسكت عنها الخلفاء حينًا فتكثر وتعمر أو يغضبون عليها فيبعدونها إلى حيث تغيب عن الأنظار ولكنها لا تغيب عن الطلاب والرواد، ومن وراء ذلك أحياء منبوذة يكمن فيها اللصوص والمغتالون يتألمون على نقب الدور وحمل العزائن واستدراج الموسرين على نحو ما نقرأ عن عصابات الإثم والجريمة فى عواصم هذا الزمان، فإذا تصفحت أخبار بغداد بما اشتملت عليه من جمال وشناعة وبذخ وفاقه واحتيال على طلب المال والمتعة من كل مطلب وانصراف إلى السرور والرغد فى كل جهة فكأنك تتصفح أخبار الغرائب فى عواصم الدنيا التى تسمى اليوم باريس وبرلين ولندن وشيكاغو ونيويورك.

وهذه العواصم كافة لا تطيب فيها إقامة إلا بمال، أما بغداد خاصة فكان ساكنها أحوج إلى المال من ساكن العواصم الحديثة، لأنها كانت عرضة للغلاء فى القرن الثالث لاضطرابات الأمور فى الجهات التى كانت تميرها وانقطاع الوارد عنها حينًا بعد حين. فإذا وقع فيها الغلاء ندر الخبز وارتفع سعر الدقيق وكان ما وصفه ابن الرومى فى بعض شكاياته:

أحسن ما كان الدقيق موقعا من رجل أفلس حتى أدفعا

. . . .

وأصبح القوم البطان جوعا وخشى الجائع إلا يشبعا

وهى إذا لم تغل لم ترخص ولم يستغن طالب المعيشة فيها عن بعض اليسار كما قال بعض الشعراء:

سقى الله بغداد من جنة غدت للورى نزهة الأنفس

على أنها منية الموسر ين ولكنها حسرة المغلس

وابن الرومى لم يكن طالب معيشة وحسب، بل كان طالب معيشة ومتعة ومسرة، وكان منهومًا فى مطالبه كلها قليل الصبر على غواية المناعم واللذات أنى كانت وحيث أمكن منها الحول والحيلة:

فبادر الدهر بالمناعم واللذات واحذر من وشك مرتحل

فإن تعذرن أن يجئنك بالقو ة فاحتل لطائف الحيل

وكان كثير الألفة لبيوت القيان يعاشرهن ويسمعهن ولا يمسع فيهن لوم لائم:

ولاح فى القيان فقلت مهلا وهل من حربة أو من سنان

. . . . . .

رميت بنبل أوتار القيان وكلسا فى القلوب بلا سنان

شبيهات الرماح قنا متون كعين أو كشغر أو بنان؟

وربما كان الشعر من حيلة التى يختال بها على رد القيان وحضور مجالسهن فينبئ عليهن حينًا ويهجوهن أحيانًا وينال بذلك ما يناله غيره بالدنانير والدراهم، بيد أنها حيلة تغنيه فى هذا الغرض قليلا ولا تغنيه كثيراً، ثم هى لا تغنيه عن المال كلما احتاج إليه فى سائر وجوه عيشه ولهوه.

فصاحبنا فى مدينة الغلاء قد عاش وعلى غير التقشف والزهد قد فطر، فهل كان ميسور الحالة مكفى المؤونة؟ وهل كان الشعر كفيلا له بمال يغنيه فى

ضروراته ونوافله؟ أو هو كان فقيراً محرومًا لا يصيب من فرض العيش إلا ما يغبه على موائد الأمراء أو يحتال له "لطائف الحيل" حيثما أسعفت وأفادت، وقلما تسعف وتفيد؟

أن قصائد ابن الرومى فى جملتها لا تدع إلا أثرًا واحدًا فى ذهن القارئ من هذه الوجهة، وهو أنه كان فى ضنك وفاته كثير الحرمان كثير الشكاية. ولكنها لا تخلو هنا وهناك فى أبيات تدل على كفاف أو حظ من اليسر، وعلى أن بعض ممدوحيه كانوا يحرمونه عطاياهم لذلك اليسر الذى يرونه عليه.

أتحرمنى لأنى مستقل ... وإنى لست كالرزحى والسغاب

فما تحمى ذوات الدر درا ... إذا صادفن ملآن الوطاب

***

ومن أبياته ما يدل على أنه كان صاحب ضيعة وصاحب دارين وثراء وتحف موروثة منها قدح زعم أنه كان للرشيد وقال فى وصفه وقد أهداه إلى على بن يحيى المنجم:

وبديع من البدائع يسبى ... كل عقل ويطبى كل طرف

وفى الحسن والملاحة حتى ... ما يوفيه واصف حق وصف

قدح كان للرشيد اصطفاه ... خلف من ذكوره غير خلف

كفم الحب فى الحلاوة بل أحـ ... ـلى، وإن كان لا يناغى بحرف

صيغ من جوهر مصفى طباعا ... لا علاجًا بكيمياء مصف

تنفذ العين فيه حتى تراها ... أخطأته من رقة المستشف

كهواء بلا هباء، مشوب ... بضياء. أرفق بذاك واصف

وسط القدير لم يكبر لجرع ... مستوال، ولم يصغر لرشف

فعلى هذا يلوح لنا أنه ميسر المعيشة ولو بعض التيسير، وأنه كان فى وقت من أوقاته "مستقلا" ليس "كالرزحى السغاب" غير أننا لا نعلم بخبر تلك الضيعة إلا لنعلم أنها مجدبة تطيل عناءه ولا تغل عليه:

أعانى ضيعة ما زلت منها ... بحمد الله قدما فى عناء

وأنها كانت تصاب بالجراد فيأتى على زرعها فى بعض السنين:

لى زرع أتى عليه الجراد ... عادنى مد رزئته العواد

كنت أرجو حصاده فأتاه ... قبل أن يبلغ الحصاد الحصاد

وأنه كان يستعفى من دفع خراجها ويكتب إلى وهب ابن سليمان يشكو إليه ضيقه خراجها ويكتب إلى وهب ابن سليمان يشكو إليه ضيقه وسلب الخطوب ما فى يديه:

هب لراجيك ما عليه فإن اسـ ... ـمك وهب ووسمك الوهاب

أنت بحر ومن له تجتبى الأمـ ... ـوال بحر لجانبيه عباب

فارغباعن مداد شعبى فليست ... فيه إلا صبابة، بل سراب

وارثيا لامرئ ألح عليه ... للزمان الصئول ظفر وناب

سلبته الخطوب ما فى يديه ... وله من تجمل أثواب

. . . . . .

غير أن ليس فى خراجى وحدى ... ما بأعلاقه يسوغ الشراب

لك فى مكثرى الرعية دونى ... حلب كيف شئت بل أحلاب

كذلك لا نعلم "بثرائه" إلا لنعلم أنه أصيب فيه بحريق و:

حدوث حوادث منها حريق ... تحيف ما جمعت من الثراء

وأنه أصبح يستطعم بعد أن كان من المطعمين:

أمن بعد منزلة المطعمين أعـــدم منـــزلة الطـاعم

وكذاك لا نعلـم بخبر درايه إلا لنـعلم أنهما غـصبـتا منه كـما زعم أو خرجتـا من يده بحق أو بغير حق على أية حال، فلما كـان فى نحو الثلاثين جـار على دار له تـاجـر يعـرف بابن أبى كـــامل - فى رواية زهر الآداب - فاغتصب بعض جـدرها وأجبره على بيعها وفـزع ابن الرومى إلى سليمان بن عبد الله بن طاهر يستعديه ويذكر تلك الدار أو ذلك "الوطن" :

ولى وطـن آليت ألا أبـيـــعـــه وإلا أرى غـيـرى له الدهر مـالكا

عهـدت به شرخ الشـباب ونعـمة كنعمـة قوم أصبحـوا فى ظلالكها

وحـبب أوطان الرجـــال إليـــهم مـآرب قـضـاها الشـبـاب هنالكا

إذا ذكــــروا أوطانهـم ذكـــرتـهم عهـود الصبـا فيـها فـحنوا لذلكا

فـقـد ألفـتـه النـفس حـتى كـأنه لهـا جـسـد أن بـأن غـودر هالكا

....

وقـد ضـامنى فيـه لئيم وعـزنى وها أنا منه مـعـصم بحبـالكا

وأحـدث أحـداثا أضـــرت بمنزلى يريغ إلى بيــعـيـه منى المسـالكا

وراغــمنى فيــما أتى من ظلامـتى وقل لى أجهـد فى جهد احتـيالكا

فـما هو إلا نظمك الشـعر سـادرا وا الشـعر إلا ضلة مـن ضلالكهـا

مـقـالة وغـد مـثلـه قـال مـثلهـا ومـا زال قـوالا خـلاف مـقـالكا

صدوقا عن الخـيرات لا يرام العلا ولا يحـتـذى فى صـالـح بمثـالكا

من القـوم لا يرعون حـقا لشـاعر ولا تفـتــدى أفـعـالهم بفـــالكا

يصـيـرنى سـؤال الملوك ولم يكن بعـار على الأحـرار مـثل سـؤالكا

مـــدلا بمال لم يصـــبـه لحـلة وحق جـــلال الله ثم جـــلالكا

وحسبى عن أتم الألية زاجر بما امتلأت عينى به من جمالكا
وأنى وأن أضحى مدلا بماله لأمل أن ألفى مدلا بمالكا
فإن أخطأتنى من يمينك نعمة فلا تخطئه نقمة من شمالكا

فلم يصغ إليه سليمان بن عبد الله.

وهذه هى قضية الدار الأولى التى غصبت وسليمان وال على بغداد وابن الرومى يومئذٍ فى نحو الثلاثين. وهى قضية كما ترى مفصلة لم يسقط منها حرف مما قيل بين الخصمين المتنازعين. تقرأ الأبيات حتى تنتهى منها، فلا يسعك إلا أن تنسى الدار وتنسى يسر ابن الرومى وعسره التفاتا إلى هذا الاستقصاء الدقيق فى سرد وقائع المشكلة والمشاجرة التى نشبت بين صاحب الدار والتاجر الباغى عليه فى زعمه، فما من كلمة قيلت فى تلك المشاجرة أو تقال فى أمثالها إلى اليوم إلا جاء بها ابن الرومى وأبرأ بها ذمته كما يبرئ الذمة حالف اليمين الغموس: يجور التاجر على دار الشاعر فينقض جدارها ويتلفها ليجبره على بيعها، فيقوم الشاعر ويقعد ويرغى ويزيد وينذر خصمه الويل والثبور وعظائم الأمور، فيهزأ التاجر المعتز بثروته الساخر بكل شيء غير ذهبه وفضته ويقول له: وماذا عساك أن تفعل؟ قصاراك أن تنظم قصيدة! .. فاذهب وانظم ما بدالك ودع الشعر ينفعك! فما هو إلا ضلة من ضلالك وبلاء لك يضر بك ولا يجدى عليك، فيغضب الشاعر لشعره ويذكر الأدب والعلم والملوك والأمراء فيستحف التاجر بفخره ويقول له: وما أنت من ذاك كله .. ما أنت إلا متسول مسترقد تمد يديك إلى مال غيرك!! فيرتد عليه الشاعر مزريًا بما لم يجمع إلا من السرقة والخداع والسحت والحرام، ويذهب يشكو ويستعدى ويرجو ويستجدى، وهكذا تدور الملاحاة والمنابزة فى القصيدة وتسجل القضية كلها فى الشعر على نمط لا يخرم حرفًا، ولا يزيد فيها ولا ينقص .. كان الشاعر مشغول بالرواية عن الدار والمنازعة عليها!! ومن الطبيعى أن يحدث جميع ما حدث ولكن ليس من الطبيعى أن يثبت الشاعر

جميع مـا حدث فى قصيدة. إذ لا فـرق بين أقدر الشعراء وأضـعفهم إلا أن أقدر الشعراء يجىء فى شعره "بالطبيعى" البسيط وأضعفهم يهمل "الطبيعى" البسيط وينقص منه أو يزيد عليه.

وللدار الثانية قضية نعرف تفصيلها كـما عرفنا تفصيل هذه القضية، فقد نازعتـه فيها امـرأة ونزعتها منه عنوة فكتـب إلى الوزير عبيد الله بن سليـمان يعرض عليه القضية ويتستغيث:

تهـضمـنى أنثى وتغـصب جهـرة ... عقارى،وفى هتاتيـك أعجب معجب

لقد أذكـرتنى لامرئ القـيس قوله ... "فـإنك لم يغلبك مـثل مـغلب"

وكانت آخر قصيدة قالها - كما فى الديوان - لامية يقول فيها:

أقـول إذا نصـبـتـنى كف جـارية ... الله أكـبـر مـن ود ومن هبل[1]

إن الغـــوانى بمـا أملن مـن أمل ... فـمـا يبـالين مـا لاقـين من أجل

مـتى غلبن رجـال الجـد فى زمن ... كـما غـلبن رجال اللهـو والغـزل

وإن أعـجب شيء أنت مـبـصـره ... فى كل ما حـملته الأرض من ثقل

كف خـضـيب من الحناء غـاصبـه ... كفـا خضيبًـا من الإيطال والعضل

يا حسـرتالى! ويا لهفا! ويا عجـبا ... إن هذه الحـال لم تنكـر ولم تزل

فى دولتى أنا مغـصوب وفى زمنى ... عـــودى ظمىء بلا رى ولا بـلل

يريد دولة بنى وهب أنصاره وممدوحيه.

ومن الواضح أن هذه الدار أخـذت منـه قبـيل مـوته بـزمن قليل، لأنه يطلب رجعـها فى أواخر شـعره ويقول أنه لـم يكن يومئذٍ "من رجـال اللهو والغزل". وقد يحتمل أن هذا الشعر كله قيل فى دار واحدة لا فى دارين وأنه تشبث بتلك الدار بعـد ما أحدث فـيها التاجـر الأحداث ورام أن يضطره إلى

(١) وبان من أرباب العرب فى الجاهلية.

بيعـها فلم يبعهـا وظل مالكًا لها حـتى ضاعت منه فى أخريات عـمره، وهو احتمال يرد على الخاطر ولكننا نستـبعده لأن زهر الآداب صريح فى أن التاجر "أجبره" على بيع داره ولأن ابن الرومى لا ينسى أن يذكر الصبا وطول العهد بسكنى الدار لو كانت هى الدار الأولى التى ملكها وعاش فـيها من صباه إلى هرمه.

وثم قصة أخـرى "لدار" كان ابن الرومى يسكنها ويخـاطب فى شأنها والى الشرطة أحمد بن محمد الواثقى الذى بقيت له الولاية إلى ما بعد موت ابن الرومى ببضع سنوات، فعن تلك الدار يقول:

بينمـا النفس وبـها بك ترجـو ... ملك دار مـعـمـورة مـأهولة
وتراعـى آمـالهـا منك أنجـا ... ز مـواعـيـد لـلمنى ممـطولة
إذ أتانـى الرسـول مـنك بأمـر ... يشـبـه الموت نـفـسـه أو رسـوله
وهو أزعـاجـهـا بأعنـف عنف ... عن مـحل اسـتـطابت حلـوله
أنـا إن تذد بـيـمـناك عنـى ... غـيـر شك فـيـسـة مـأكـولة

ونظن أن البيتين الآتيين مما قاله فى هذه الدار بعينها:

يا ويح مـن أصـبح فى غـمـة ... ليس لـه من كـربـهـا مـخـرج
فـروحـه تزعج عن جـسـمـه ... وجـسـمـه عن بيـتـه يزعج

وقد تكون هذه الدار هى التى نزعتها منه المرأة، وقد تكون داراً مأجورة وهو الأرجح عندنا، لأن الشـاعـر لا يقول فى مـزاياها إلا أنهـا "محل قـد استطاب حلوله" و "منزل أحب نزوله" وأنها مكان:

فـيـه عـافـانى الإله مـن الشكـ ... ـو وفـك الإله عنـى كـبـسـوله
بعـد جـهـد حـملت منه ضـروبًا ... ليـس أثقـالهن بالمحـمـولة

وهو كلام أشـبه بأن يقال فى مكان جـرب بعد تجربة غـيره، وكان فـيه

معنى للاستطابة والاختيار، وله على غيره من الأماكن المأجورة مزية الموافقة والاستحسان. ويزيد فى ترجيح ذلك أن الشاعر يقول أنه كان يرجو "ملك" " دار معمورة مأهولة فما كفاه أن تفوته الدار المملوكة حتى أزعجوه عن مسكنه . . وذلك بما تقدم أشبه . .

وأيا كان الخلاف فيما سبق فالأمر الذى لا خلاف فيه أنه مات فى دار مأجورة. فإن الناجم يقول حين قص علينا قصته فى مرض وفاته أنه انتقل من الكرخ إلى باب البصرة فسكن فى ابن قلابة ولم يسكن فى دار ابن المعافى كما أشار عليه بعض أصدقائه. وهو يصف حالة قبيل ذلك فيقول من قصيدته البائية إلى القاسم بن عبيد الله حين عزم على الشخوص إلى "آمد" مع الخليفة المعتضد:

ثوبى الرث والثياب طراء ... وطعامى بزعمى المجشوب

ومحلى عارية وجدارا ... ت بيوتى فكلها منقوب

ومقيلى فى الصيف سخن بلا خيـ ... ـش، فعظمى يكاد منه يذوب

فالذى يفهم من هذه الأخبار حين يجمع بعضها إلى بعض أنه ورث دارا من أبيه هى التى يقول أنه قضى فيها أيام صباه، فلا تكون على هذا إلا إرثا نشأ فيه قبل أن يدرك السن التى يكسب فيها ثمن الدور، وورث تحفًا تقتنى كتلك الكأس التى زعم أنها كانت للرشيد، وقد تكون الضيعة بعض إرثه من أبيه وقد تكون مما اقتناه فى بعض حالات وفره، ولكنه كان يحتاج إلى الدين فيعرض عقاره للضياع وتقوم عليه الحجة فلا يقدر الولاة على دفع خصومه وقبول دعواه، وشكاياته من الديون كثيرة تؤيد هذا التفسير. فمنها:

على دين ثقيل أنت قاضيه ... يا من يحملنى دينى رجائيه

وقد حمانى إخوانى مواردهم ... ووكلتنى إلى بحر سواقيه

ومنها:

أقـــول لما رأيت عـــــرسى تســـتـــرزق اللـه باليـــدين
ســيجــعل الله بعــد عـســر يســرا بجـدرى أبى الحـســين

. . . .

من حـــسن حـــال ورفـــه بال ورفـع قــــــدر وحـط ديـن

ومنها:

وارتكـاب الديـون إياى فـى ظلـ ـك يهـجـوك باللسـان الفـصـيح

ففى هذه الديون ضاع عقاره واستبد به دائنوه

ومثل ابن الرومى لا يستغرب منه أن يسـرف ويستدين وإنما يستغرب منه أن يقصد فى نفقـته ويعتدل فى تصرفه، فـهو إما مضياع متـلاف وإما شحيح مقتر حسـبما يتعاوره من المغريات بالأنفاق وهواجس الخـوف من الفاقة، وقد كان هو مضـياعًا متلافًا وشـحيحًا مقتـرًا فى نوبات نوبات لا يدرى لها سبب ولا يضبط لها ضـابط، فكان مضياعًا متـلافًا على الكره منه وشحيحـًا مقترًا على الكره منه كذاك، وكثيرًا ما أنحى على نفسه باللوم لحرصه وضعف إيمانه وشكاها إلى الله كأنما يغالبه على الحرص مغالب شديد المراس كما قال:

إلى الله أشكو شـح نفـسى لأننى أرى الجود لى حظًا وشيمتى البخل
وقد كـان حق الجود بذل ذخـائرى إلى أن يرائى اللـه يعـوزنى الأكل
ولكن نفـــسى آثرت نيل مـــالها وما حيث نيل المال مـا يوجد النبل

أو كما قال:

وفيم اجـتهادى فى مـحاولة الغنى ومـا للـغنى عند الجـــواد به قـدر

وحينًـا يثقل عليـه الصراع بين حـرصه وسرفـه ويخلد إلى العـجز عن المغالبة فيـلتمس المعاذير لنفسه ويجعل الشح من المكارم المحـمودة لأنه يصونه عن الحاجة ويعصمه من السؤال والاقتراض:

إذا لم يكن عندى سوى ما يكفنى فشحى عليه مثل شحى على عرضى

لأنى متى أتلفته احتجت حاجة تذيل مصون العرض فى طلب القرض

فهو لا يزال أبداً شديد الزهد شديد الرغبة:

وأصبح الأثراء أزهد زاهد وإن كان فى الأثراء أرغب راغب

فلا جرم يضطرب فى عيشه ويخرج عن القصد فى حالتى شحه وسرفه، ويظل مدخراً لا ينتفع بما ادخر أو مبدداً لا يبقى من ماله ولا يذر.

***

على أنه لو بقى له كل ما ورث من أبيه وكل ما علمنا أنه ملكه لما أغنانا ذلك البحث فى مورد رزقه وسبب اتصال عيشه. إذ كان البيت الذى يسكنه مالكه لا يحسب من موارد الكسب، والضيعة التى "ما زال منها فى عناء" لا تبلغ أن تدر عليه رزقًا يكفيه، ومن أخباره ما يقطع بعثور جده وبؤسه الغالب عليه معظم حياته، فلولا هذا البؤس لما لزمه ميسم النحس ولا عيروه الخيبة والخصاصة، ولولا عسره وافتقاره لما وقع بينه وبين البحترى ما وقع. إذ هجاه "فأهدى إليه تخت متاع وكيس دراهم وكتب إليه ليريه أن الهداية ليست تقيه منه ولكن رقة عليه، وإنه لم يحمله على ما فعل إلا الفقر والحسد المفرط"!! فإذا خطر لنا أن مطالبه الكثيرة لا تدل على حقيقة فقره وأنها عادة جرى عليها كما جرى الشعراء فى عصره فاشتهاره بالنحس والتخلف ورد البحترى عليه دليل على عسر حقيقى ما فيه ريب، أو دليل على حجة دائمة إلى المدائح والصلات يعول عليها فى ضروات معاشه فضلا عن نوافل لهوه.

فسؤالنا الذى ينبغى أن نسأله فى هذا المعرض هو: ماذا كان نصيبه من المدائح وكيف كانت حظوته عند ممدوحيه؟ والجواب الذى لا تردد فيه أنه لم يكن نصيبًا جزيلا ولا حظوة مغبوطة. إذ هو لم يتصل بالخلفاء ولم يأخذ جوائزهم الكبيرة التى تغنى الشاعر عن السؤال زمنًا أو تغنيه عنه بقية حياته،

وإنما كانت مدائحه كلها للولاة والوزراء والقواد والكتاب ومن يضارعهم ويقل عنهم فى الرتبة والثروة، فلم يمدح خليفة قط إلا لعلاقة بين هذا الخليفة وبين رئيس أو نديم من الذين يعرفهم وينتمى إليهم، فمدح المستعين وهجا المعتز حين تنازعا الخلافة بينهما لأن محمد بن عبد الله بن طاهر كان من حزب المستعين وكان مقيمًا فى بغداد وابن الرومى يمدحه ويقيم معه فى المدينة، ومدح المعتمد لأن بنانا المغنى اقترح عليه مدحه - وهو يكتب لبنان - فأجابه إلى ما اقترح وذكر اسمه فى ختام القصيدة:

فلا يزال فى نعيم عيش ... مزجه الخفض والليان

حتى يرى فيه كل سؤال ... ومنية عنده بنان

ومدح المعتضد بالمقاطيع الكثيرة لأنه كان صديق آل وهب وكالئهم من لدن تولى العهد إلى أن بويع بالخلافة.

وقس على ذلك سائر مدائحه للخلفاء وولاة العهد وما هى بالكثيرة فى عددها ولا هى بالكثيرة فى عدد أبياتها . . فقد كان لا يعنى بتطويلها كما كان يطول مدائح الولاة والوزراء لأنها مدائح لم تقصد لذاتها ولم ينظمها إلا مرضاة لأصحابه وتلبية لاقتراح المقترحين عليه، وكأنهم كانوا يطمعونه بذلك فى تقريبه من الخلفاء وازلافه لعطاياهم، ولكنهم لا يفعلون. فظل محجوبًا عن الخلفاء لا يستدعونه ولا يسألون عن شعره حتى مات وجاء المستكفى يسأل عما قاله فى الطعام والشراب!

ونعود إلى الوزراء والرؤساء لنبحث عن نصاب الجائزة عندهم وغاية ما يصلون به الشاعر إذا رضوا عنه وبالغوا فى عطائه. وليس يطول بنا البحث فى هذا لأنه واضح من الحديث الذى جرى بين البحترى وابن الرومى حيث يقول البحترى: "أقرأنى أبو عيسى بن صاعد قصيدة لك فى أبيه وسألنى عن الثواب عنها فقلت: أعطوه لكل بيت دينارًا" فكأن هذا غاية ما يرتقى إليه الموصى بجائزة وغاية ما كان ينتظر ابن الرومى من شفاعة متشفع يتودد إليه،

وابن الرومى نفسه قد عين نصاب هذه الجوائز تعيينًا فى بيت يخاطب به على بن يحيى المنجم يقول فيه:

وما المائة الصفراء منك ببدعة ولا من أخيك الأريحى أبى الصقر

يعنى مائة دينار. فهى إذن غاية الغايات من جوائز الأمراء، ولابد أن يحسب فى هذا التقدير حساب مبالغتين مفروضتين فى هذا المقام هما مبالغة الطمع ومبالغة الثناء .. بل حساب مبالغة أخرى صريحة فى البيت وهى أن الأنعام بمائة دينار كان أقصى ما تسمو إليه الأريحية وكان بدعة فى ذلك العصر من غير هذين الممدوحين. فمن الرؤساء - على هذا - من كان يجيز الشاعر أن أجازه بعشرين ديناراً وعشرة دنانير وما فوق ذلك وما دونه، وكانت هذه هى السنة الشائعة والنصاب الذى حرى عليه العرف بين معظم الرؤساء ومعظم الشعراء.

وأنت تقلب ديوان ابن الرومى فتقرأ فيه عشر قصائد فى الشكوى والتذكير والاستبطاء والإلحاح والإنذار والهجاء إلى جانب قصيدة واحدة فى المدح الخالص من العتاب والاستنجاز، فنقدر أنه نجح فى مائة قصيدة وأخذ عليها مائة جائزة فمحصل ذلك كله لا يزيد على ألفى دينار مع التسهيل فى عدد الجوائز ومقدار الدنانير وألفا دينار يتلقفها الشاعر فى نحو أربعين سنة ليست بالرزق الرخى ولا بالوقاء من العوز والدين فى مدينة الغلاء وعصر البذخ والإسراف، ودع عنك أنها تجىء متقطعة ممنوعة لا يعرف لها موعد ولا توافق أوقات الطلب والحاجة.

ذلك نصاب الجوائز عند الرؤساء والوزراء إذا رضوا وسمحوا بالعطاء، فأما الحظوة عندهم فلم تكن من قسمة ابن الرومى فى أكثر الأوقات وأن أكثر وإن أجاد وإن أفرط فى التلطف والاسترضاء: فما أكثر ما كانوا يتجنون عليه ويستخفون به ويتمحلون العلل الواهية لحرمانه وجفائه والقدح فى شعره! فهذا

إسماعيل بن بلبل مدحه بقصيدة معدودة فى شعر المدح العربى من أقدم أزمانه إلى أحدثها فتجهم له ضن عليه، ولأى ذنب؟ لأنه قال فيها:

قالوا ألو الصقر من شيبان قلت لهم كلا لعمرى ولكن منه شيبان

وأى شىء فى ذاك؟ فيه كما زعم أنه هجاه وأنكر عليه ما ادعاه من نسبه.! فقيل له هذا من أحسن المديح، فاسمع ما بعده:

وكم أب قد علا بابن ذرى شرف كما علا برسول الله عدنان

فتجنى وتعلل وقال: أنا بشيبان ليس شيبان بى.

فقيل له أنه لم يبخس شيبان وقد قال فيها:

ولم أقصر بشيبان التى بلغت بها المبالغ أعراق وأغصان

لله شيبان قوم لا يشيبهم روع إذا الروع شابت منه ولدان

فأصر على التجنى والتعلل وأقسم لا أثابه، ورجع الشاعر مغضوبًا عليه فوق حرمانه وطرده . . وقد كان رجاؤه بما جود وأطال أنه يرضى عنه ويثاب. ولم يكفه هذا حتى جنى على نفسه انحراف الوزراء الآخرين عنه لأنهم لم يمدحوا بتلك القصيدة، فراح منهم من يقول أنها دار الطبخ!

ومدح محمد بن عبد الله لن طاهر مرة فانقلب ناقدًا منافسًا للشاعر وهجا شعره ولم يجزه بشىء:

مدحت أبا العباس أطلب رفده فخيبنى من رفده وهجا شعرى

فهبنى قد أعفيته من مثوبتى أيغضى له شعرى على مضض

ومن إهمالهم إياه أنه كتب قصيدة عتاب إلى أبى سهل النوبختى فنظر إليها والرياح تلعب بها فى جانب ا لدار وقد خطط فى ظهرها بالمداد.! فثارت ثائرته وأقبل يعاتب لإهمال العتاب بعد أن كان يعاتب لإهمال الثواب:

رقعة من معاتب لك ظلت ولها فى ذراك مثوى مهان

سطر العابثون فيها أساطـ ـر عفت متنها فما يستبان
خط ولدانكم أفانين فيها أو رجال كأنهم ولدان
. . . . . .
وقبيح يجوز كل قبيح رقعة من معاتب لا تصان

ويتماجنون فيقولون إذا مدحهم أنه ينظم الشعر كأنه نائم . . فيرى المسكين فرضًا لزامًا أن يسلم لهم العيب الذى عابوه وأن يستخرج معنى جديدًا من معانى الثناء على ذلك الممدوح الذى تماجن عليه:

مدحتك مدح المستنيم إلى امرئ كريم فقلت الشعر وسنان هاجعًا

ولا ترى له شعرًا فى أحد من الذين انقطع لهم وأكثر من قصدهم إلا رأيته يشكو فى خطابه له أنه يظلمه حقه ويخصه بالحرمان دون أمثاله ومن هم أقل منه. فهو يقول لبنى وهب:

فاز الورى من ريحكم بسحائب هطلت، وفزت بسافيات تراب

ولبنى طاهر:

أرى الشعراء حزا عندكم سواء عيبهم واللسن
سواى! فإنى أرانى امرءًا هزلت، وكلهم قد سمر

ولبنى هاشم:

بنى هاشم مالى أراكم كأنكم تجورون أحيانًا وأنتم أولو عدل
كما لو هجاكم شاعر حل قتله كذاك فأوفوا مادحًا دية القتل

ولإسماعيل بن بلبل:

أبا الصقر لست أرى مهديًا لك المدح - غيرى - إلا مشابا

ولعل قربه منهم وحسبانه عليهم هو الذى أنزر نصيبه من جوائزهم

وحفاتهم، لأنهم كانوا يحسبون عليه حضور مجالسهم وموائدهم وإسهامه أحيانًا فيما يسهم فيه الجلساء والندماء من ألطافهم وهداياهم، ويوجبون عليه بذلك أن يظل لهم وحدهم شاعرهم وأديب بيتهم يطرفهم بالملح الأدبية ويواليهم بالتهنئة فى مناسبات التهنئة والثناء فى معارض الثناء ثم لا ينتظر منهم الخلع والصلات على كل قصيدة ولا فى كل موسم كما ينتظرها الشاعر الطارئ الذى يلقى قصيدته ويذهب لطيته. وهم فوق هذا يمنون عليه أن قبلوه فى مجالسهم وأحضروه موائدهم ويفرضون عليه وفاء العبد للسيد والصنيعة لولى النعمة، ويظنون أنهم كفلوه بالعيش الرغيد والظل الظليل:

إذا أمتاحهم آكلة عبد ... وه تعبيد رب لمربوبه

يخالون أنهم بلغو ... ه بالقوت أفضل مطلوبه

وأنهم حرسوا نفسه ... به من غوائل مرهوبه

يذيل مضيفهم ضيفه ... كملبوسه أو كمركوبه

والأغلب عندنا أنهم كانوا يقلبونه فى مجالسهم وحضرونه موائدهم غرامًا بضروب الشذوذ والشهرة وكلفا بالطوائف والملح كما هو دأب أصحاب المجالس فى كل أمة، فكانوا يأنسون به فى بعض حالاتهم ويقربونه لغرابة أطواره ووفرة محفوظه من الأشعار والنوادر والأمثال وسرعة ارتجاله للتشبيه والمحاكاة، فكأنهم اصطنعوه للأغراب لا للمودة وتخيروه للمظهر لا للثقة والكرامة، ولهذا كانوا يحضرونه مجالس الاحتشام وينحونه عن خلوات الحفاوة والتبسيط، وكان يعلم بهذا فتسوءه فوق مساؤته بالحرمان ويعجله الغيظ الذى لا يقوى على كظمه أن يسكت عن العتاب فى مثل هذا الأمر، فيعتب كلما حجب كما قال فى مرة من هذه المرات للقاسم:

فى جلنار وأختها دبسية ... يا ابن الوزير لعاتب متعتب

أحضرتموه جلنار وأحضرت ... دبسية الكبرى لغيرى تحجب

وكان يحار فى ها الحجب ولا يدرى ما علته ولا ما النقص الذى استوجبه، ويسائل الأمير عن نفسه:

هل ترى الغفلة شابت حمله ... أم ترى النكراء شابت فطنه

هل ترى العى يواخى صمته ... أم ترى الغى يواخى لسنه

هل ترى الشك عليه غالبا ... عند حق، أم تراه يقنه

هل رأى منك قبيحًا بثه ... أم رأى منك جميلا دفنه

هل لديه لك سر ذائع ... أم أمانات غدت محتجنه

لكن حيرة ابن الرومى هذه قد ترشدنا إلى أسباب حجبه لأنها ترشدنا إلى بضاعته التى أعدها للمنادمة وحسب أنه مستحق بها التقريب والمصاحبة، وهى أدوات العلم والبحث والشك فى موضع الشك واليقين فى موضع اليقين! وما هى بألزم ما يلزم النديم فى مجالس الخلوة فضلا عن مجالس الاحتشام، فقد يستغنى النديم عنها كلها بالقدرة على المصانعة ومسايرة الأهواء، فى حين أن العلم لا يغنيه عن تلك القدرة ولا يسد مسدها فى مجالس الاحتشام ولا مجالس الإباحة.

بقى حفظ السر وما نظن دعواه فيه مطابقة للحقيقة أو لرأى جلسائه المحتجزين عنه فى خلوات الإباحة: لأن من كان مثله مطبوعًا على "الاعتراف" بعيوبه لا نخاله يمسك لسانه ويحفظ سرًا رآه ساعة لهوه .. فإذا حجبه الأمراء عن مجالس الخلوة فلأنه لا ينفعهم فى تلك المجالس ولا يؤمن عندهم على أسرارها وما يقع فيها من فلتات اللسان ونوادر رفع الكلفة وإرسال النفس على السجية ..

لكنهم كانوا يحجبونه أيضًا عن المجالس العامة ولا يقتصرون على حجبه عن المجالس الخاصة، وكانوا يقطعون ما بينه وبينهم حتى تضيق به الدنيا ويتنمر له كل من ينتمى إليه أو ينتمى إليهم:

تعرفت فى أهلى وصحبى وخادمى هوانى عليهم مد جفانى قاسم

فيعود يسأل الإذن فى المقابلة ويكتفى به عن سائر المطالب:

بل أنت معفى من جميع حوائجى إلا لقاءك فى السواد الأعظم

لا أبتغى ما كنت أسأل مره حسبى بوجهك، فهو أفضل مغنم

قال هذا وقد حجبه القاسم عن لقائه وامر الخدم برده، وكان القاسم وأمثاله يمنعونه بعض المنع وفى نفوسهم بعض الرعاية له وبعض الرضى عنه، فأما إذا غضبوا عليه وصرحوا له بالجفاء فقد كانوا ينبذونه ويوصدون دونه كل باب ويخلون بينه وبين الحجاب يدعونه ويتصلفون عليه، والحجاب لا يعوزهم التصلف على مستأذن يأمنون العواقب فيه ويأنسون من سادتهم الرضى بإيذائه، فإن الحاجب منافس لكل جليس ينزل من سيده منزلة الخليل والسمير وهو قائم على الباب مقام الخادم، وهو يود أن يدل عليه بقدرتهت على الرد والإذن الإقصاء والتقريب والتمييز فى الجفاوة والتعظيم، فكان ابن الرومى فى فترات الإقصاء والإعراض يقاسى شديدًا من غلظة الحجاب ويسرع كدأبه إلى شرح ما يلقاه منهم على طارق مهيض الجانب من كل حاجب غاضب أو متغاضب:

وكم حاجب غكبان كاسر حاجب محا الله ما فيه من الكسر بالكسر

عبوس، إذا حييته بتحية فيا لك من كبر! ومن منطق نزر!

يظل كأن الله يرفع قدره بما حط من قدرى وصغر من أمرى

إذا ما رآنى عاد أعمى بلا عِمى وصم سميعًا ما بأذنيه من وقر

ولقد كان يحمد الله أحيانًا أنه نجا من تعجرف الحجاب عليه بغير أذى فى جسده:

عم الأذين بإذنه وتخلفت حالى، فلم أذكر ولم أتوهم

لكن نبذت مع اللفيف بمسمع وبمنظر للشامتين ومعلم
بل ما أصابتنى هناك شماتة لكن غبطت لأننى لم ألطم!!

فلم يكن رزق الرجل إذن متصلا من الجوائز ولا من ألطاف المجالس، ولم تكن حاجته إلى ضرورات العيش بالحاجة المصطنعة التى لا تنم عن فاقة حقيقية فى معظم أيام حياته، فسؤاله الدقيق والطعام والملبس سؤال محتاج إلى ما يطلب معتمد على ما يجمع من النوال. ولنا أن نشك فى حاجته عاجلا أو آجلا إلى ذلك الشيء من طريق السؤال كما كان يصنع عامة الشعراء فى الأزمان الماضية، ولا سيما فى ذلك الزمان الذى اضطربت شئونه وقل ضمانه وتلاحقت طوارئه، فمن مسائل ابن الرومى ما يصعب الشك فى صدقه كقوله يستعطف وهو يكاد ييأس:

إن لله غير مرعاك مرعى يراعيه وغير مالك ماء
وتيقن متى جنيت على عبد ك ضيمًا وضيعه وعناء
إن لله بالبرية لطفًا سبق الأمهات والآباء
. . . . . .
لى خمسون صاحبًا لو سألت الـ ـقوت نيهم أنفيتهم سمحاء
أترى كل صاحب لى منهم يمنع الشهر بلغتى أجراء
لى فى درهمين فى كل شهر من قسئام ما يطرد الحوجاء

وكثيرًا ما ألم لهذه الحاجة الدائمة وتوسل إلى الرؤساء أن يجربوه فى ولاية أو جباية أو يتخذوه لعمل فى الديوان يريحه من ذل السؤال وعذاب القلق والانتظار، فكانوا يضنون عليه بما سأل ويأبون أن ينقذوه من سوء تلك الحال، ولزم آل وهب ما لزمهم وهو يترقب أيام دولتهم ويترجى الخير الجزيل على أيديهم، فلما صارت إليهم الوزارة لم يصنعوا شيئًا وزادوا أنهم قطعوه

بعد صلة ومنعوه ما كان يناله قبل الوزارة! وكثر زوارهم وقصادهم فتأخر مقامه بينهم وربما رأوه حينًا وهو مقدم على سواه

أنا من عراك وباب دارك موحش من كل مؤتنف على مقدم

وكان أسمح الرؤساء معه من كان يلهيه عن العمل فى الديوان بوظيفة صغيرة يشاهرها عليه ولا يثبتها فى سجل الأرزاق المرصودة المضمونة بعض الضمان، ومن شأن هذه النوافل أن تحتاج أبدًا إلى التذكير والتنبيه فما لابد أن يجرر إليه التذكير والتنبيه من السأم والجفاء، فإذا حصل ذلك - ولابد من حصوله - خسر الوظيفة وصاحبب الوظيفة وباء إلى شر مما كان.

والعمل الوحيد الذى ذكر فى ديوانه هو عمله فى الكتابة عند آل بنان المغنى الذى كان ينام الخليفة المعتمد ويغنيه ويسأل ابن الرومى أن يمدح الخليفة بلسانه، وكأنه لبث فى هذا العمل عشر ينين على ما يجوز أن يؤخذ من قوله:

والغناء الشديد شدوًا وضربًا سحنة قد ملأت منه الإناء

ظلت عشرًا كواملا فى مغانيه أغنى وأسمع الأنحاء

ولن يكون ذلك العمل إلا ضئيل الأجر مغبونه كما يظن بأجر يتناوله كاتب مغن. وكما يدل بيتاه المشهوران فى بنان:

تعالى جد دينارى بنان فحلا حيث حل الفرقدان

ولو أن النفوس بحيث حلا غدون من الحوادث فى أمان

فإن قلنا أن "الدينارين" هنا للتطفيف لا للحصر فأقصى ما يرتقى إليه الديناران أن يكونا عشرة! وعشرة دنانير ليست بالرزق الطيب فى عصر كعصر المعتمد بمدينة بغداد . .

فمعيشة الرجل فى جميع أدوارها كانت معيشة عارف بالحياة متذوق لها

وهو مع المعرفة والتذوق ملدد محروم طويل الهم بأمر الرزق مشتت الفكر بين القلق والخيبة والمطل والحرمان، وهى معيشة مزعجة مكهربة تهد القوى وتنهك الفكر والجسد ولا تكون إلا وخيمة الأثر فى نفس رجل مثله كثير المخاوف عليل الأعصاب

لماذا فشل؟

فشل لأنه كان قليل الحيلة صفرا من الدهاء، ذلك أوجز ما يقال فى أسباب فشله، فما من عمل كان يحتاج إلى حيلة إلا كان ابن الرومى فيه مخفقًا أو كان مصدوفًا عنه حتى اللعب، ومن ثم كراهته للعبة الشطرنج التى راجت فى أيامه وكثر التفنن فى طرائق لعبها بين ممدوحيه حتى كان أحدهم يلعبها وظهره إلى رقعتها، وهو الذى يقول فيه:

ثقيل الشاه حيث شئت من الرقـ ـعة طبا بالقتلة النكراء
غير ما تناظر بعينك فى الدسـ ـت ولا مقبل على الرسلاء
بل تراها وأنت مستدبر الظهـ ـر بقلب مصور من ذكاء
ما رأينا سواك قرنًا يولى وهو يرى فوارس الهيجاء

ولكنه هو كان يجهلها ويحاول البراعة فيها فلا تساعده الحيلة، فينقلب هزئًا بها ويقضى عليها بأنها من تعلات الفراغ والجوع!

أرى لعبة الشطرنج أن هى حصلت أحق أمور الناس إلا تحصلا
تعلة بوابين جاعا وأرملا بباب قليل خيره، فتعلا

أو يقول:

تفرست فى الشطرنج حتى عرفتها فإن صح رأيى فهى بالوعة العقل

وحسب الرجل أن تقل حيلته فى أواسط القرن الثالث ليكون مقضيًا عليه بالهلاك أو بالفاقة وإن اتصل بذوى الأخطار والعاملين فى سياسة

الدولة، بل يقضى عليه بالهلاك والفاقة لأنه اتصل بميدان هو أحوج الميادين إلى المكر وسعة الحيلة، فمدائح ابن الرومى نفسه أدل شيء على ضرورة الدهاء فى أيامه وشيوع هذه الخصلة بين أبناء عصره. فإنه مدح أشتاتًا من ذوى المقامات بينهم الوزير والقائد والمديم والكاتب والفيلسوف فكان الدهاء صفة تتكرر فى مدح كل واحد منهم وثناء متشركًا بين من يطلب منه الدهاء بحكم عمله ومن لا يطلب منه ولا يعيبه أن يفوته، وإليك أمثلة قليلة نكتفى بها عن إحصاء كل ما جاء على هذا المعنى فى مدائحه الكثيرة.

قال فى على بن يحيى النديم:

فل بالحجة الخصوم وبالكيـ ـد زحوف العدى ذوى التاليب

وقال فى ابن ثوابة الكاتب:

وبكيده يروى القنا علقا ويختصب اختصابه

وقال فى القاسم بن عبيد الله الوزير:

يرمى بدهياء من فلائقه فى وجه دهباء من فلائقها

وقال فى عبيد الله بن عبد الله القائد:

يصاول القرن أو بخاتله جلدًا أريبًا بعيدة سربه

كالليث فى بأسه وآونة مثل الشجاع الخفى منسربه

وقال فى الجنود الأتراك:

ترى شبه الآساد فيهم مبينًا ولكنهم أدهى دهاء وأنكر

وقد صدقت فى هذه المدائح فطنة ابن الرومى إلى صفة عصره والخلق الذى لابد منه للمتقدمين فيه من ندماء أو كتاب أو قادة أو وزراء أو جنود، فلم يكن لواحد من هؤلاء غنى عن الكيد والختل والدهاء، ولم تكن للعصر كله صفة بارزة بروز هذه الصفة التى اشتدت الحاجة إليها بين القلاقل

والدسائس والاضطرار الدائم إلى اقتناء الشر ومداراة الأقوياء والحيطة لما تأتى به طوارئ الأحداث، وأحجى أن تشتد الحاجة إليها حيث تعشش الفتنة وتبيض وتفرخ بين رجال الدورة ومن يعاشرهم ويلحق بهم من الشعراء والندماء ومغتنمى الفرص من صمود هذا وهبوط ذاك وإقبال هذه الدولة وأدبار تلك، فقد كان هذا هو عمل كل يوم وشاغل كل ساعة فى البيئة التى عاش فيها ابن الرومى خاصة، فما كانت أيامهم تنقضى على غير خليفة يعزل أو يدبر له العزل وولى عهد يخلع أو يدبر له الخلع ووزير يكاد له أو يكاد لخصمه وصاحب مال يصادر أو يسعى لمصادرة غيره، وهذا وأشباهه شغل يفتقر من يزاوله ويعيش فى بيئته إلى الدهاء افتقاره إلى أداة المعيشة الأولى وسلاح الخرب الألزم له من كل سلاح.

فى ذلك العصر عاش ابن الرومى وهو أعزل لم يستعد له بعده ولم يحسن قط أن يتداهى على أحد ولا أن يحترس من دهاء أحد. وراح يتقلب فيه بإحساس طوع الحوادث ولسان طوع الإحساس! فكان نقيض الرجل الذى يصلح لمثل زمنه. إذ كان ألزم ما يلزم ذلك الرجل أن يملك إحساسه ولا يطيعه، وأن يجعل بين إحساسه ونسائه سدًا منيعًا من الرياء يستتر خلفه، فأخطر ما يجر الخطر على المرء فى عصور القلق أن يرسل نفسه وأن يطلق لسانه وأن يلهو بما بين يديه عما حوله، كما كان يفعل ابن الرومى ومن طبعوا على غراره. وما نظنه كان يكرر صفة الدهاء فى ممدوحه إلا وهو يشعر بخوه منه وحاجته إليه، غير أن الشعور بالحاجة غلى الدهاء لا يعطيه الدهاء! كما أن شعور المريض بالحاجة إلى القوة لا يعطيه القوة، وغاية ما يستطيعه أن يأسى ويتكلف ما ليس فى خلقه، فلا يفيده الأسى ولا التكلف إلا أن يبدى منم ضعفه ما هو أولى بإخفائه.

***

ذلك أول الفشل أو ذلك أوجز ما يقال فى إجمال أسبابه.

وهو مع هذه الغـرة التى تعـد من أكبـر الجنايات فى عـصر الدسـيسـة والمداورة - كانت له جناية أخـرى تعد من أكبـر الجنايات فى جميع العـصور وبين جـميع الأمم وعند جـميع الأفراد. كـان غريب الأطوار ولا أضـر على الضعيف الحـيلة من غرابة الأطوار. لأنها تفرده بين الملأ فتنصـبه وحده هدفًا لكل ما فى الطبائع الإنسانية من لؤم وسـفاهة وسوء ظن ومجانة. و "الشيء مسـتوحش إذا غربا" كـما يقول، فـحسب المرء أن يشـتهر بهـذه الغرابة وأن يسجلها عليه من يعرفه ومن لا يعرفه حتى تبطل دعواه وتسقط حقوقه ويكون "المجتـمع" قد أصدر عليـه حكمًا سرمـدا! كذلك الحكم الذى كـان يصدره السلطان فى غابر الأزمان بإهدار دم الطريد الهارب من عـقوبته وسخطه. فلا يشـفه أحد ولا يـتحرج مـن العدوان عليـه والتعـرض لغضـبه، فإنمـا أساس الإنصاف أن يعرف للإنسان حق الرضى والغضب وحق الشكوى والملام، فإذا سلب هذا الحق واشـتهر عـنه أنه يألم لغيـر ما يوجب الألم ويفـرح لغيـر ما يوجب الفرح ويعجب والناس لا يعجـبون ويثور والناس لا يثورون ويبطرق وهم لا يعرفـون فيم يطرق ويهلل وهم لا يشعرون فـيم يهلل - فهم إذن فى حل من إسـخاطه واهتـضـام حقـه! وهو إذن طلبة الـسلطان الأعظم سلطان المجتمع الذى أهدر دمه وأباح أمنه مـاله، فلا يشكو إلا وهو متهم ولا يشكى إلا وللشاكى عليه حجة . . وكل ذنبه بين الناس أنه من مـعمدن غير معدنهم وذو شعور بالحياة غير شعورهم، وقد يكون خيرًا منه وأجدر بالإنصاف.

بل حسب المرء أن يشتـهر بالغرابة حتى يصبح المألوف من عـمله غريبًا يفعله هو فيلاحظ ويتبعه الناس بالغمزات، ويفعله غيره فلا يلاحظ ولا يتغامز أحد عليه. لأن سمعة الغرابة هى المهم فى هذا الصدد، وليست الحوادث التى توصف بالغرابة.

وقد يعفى الغريب الأطوار من هذا الإهدار" إذا كان مع غرابة أطواره له سطوة أو ثروة أو عصمة يعتصم بها من عـشيرة تغار عليه أو جار يميل إليه،

فربما أساغوا منه غرابته فى هذه الحالة وعدوها حيلة تزينه وظريفة ترغبهم فيه. فأما أن يكون ضعيفًا لا حول له ولا حيلة وغريبًا فى خلقه وشعوره فذلك هو المجرم المضاعف الذى لا شفاعة فيه ولا نجاة من عقوبته، وقل فى عقوبة مشدد فيها كما يشاء لؤم من لا يخاف عاقبة لؤمه، مبالغ فيها كما يبالغ فى إيذاء كل معدوم النصر.

***

عاش ابن الرومى فى ذلك العصر قليل الحيلة فهو أعزل، غريب الأطوار فهو مستهدف لكل من يرميه، دقيق الحس فهو معذب بما يصيبه. وثقلت عليه صدمات الخيبة وساء ظنه بإنصاف الناس فوهن ما فيه من بقية عزم الشباب - وعاف السعى وانطوى على اليأس ووجدت نفسه لذلك وجدًا تعرفه من صرخته:

لا عذر لى فى أسفى بعدها على العطايا. عفتها! عفتها!

فكان هذا مع ضعفه واعتلاله وحذره المغروس فى تركيبه وحاجته إلى من يرأمه ويعينه صارفًا له عن السعى فى طلب الرزق والنزوح عن الوطن، جانبًا به إلى القعود حيث قعد لا يرى إلا أن البلاد كبلده وأن الأخبار والأشرار سواء فى قلة إنصافه.

ذقت الطعوم فما التذت كراحة من صحبة الأشرار والأخيار

وما كان الرجل مخلوقًا للجلد والمشقة فى أيام الشباب بله المشيب، ولكنه كان ربما رحل فى تلك الأيام إلى الأبلة أو سامرًا "سر من رأى" أو بعلبك، وهى فيما نظن أبعد ما وصل إليه فى رحلاته. فلا يلبث أن ينكرها وتنكره ويعود منها وما لقى فيها إلا مثل ما لقى فى وطنه:

لقد أنكرتنى بعلبك وأهلها بل الأرض بل بغداد صاحبة البتل

ويرسل إلى أصحابه فى بغداد يتشوف ويقسم لا أزمع بعدها سفرًا ولا آثر على قربهم مطمعًا:

وأن يقض لى الله الرجوع فإنه ... على له إلا أفارقكم نذر

ولا أبتغى عنكم شخوصًا ورحلة ... مدى الدهر، إلا أن يفرقنا الدهر

فما العيش إلا قرب من أنت ألفه ... وما الموت إلا نأيه عنك والهجر

و"طول مقام المرء فى الحى مخلق لديباجيته" كما قيل. فإذا أحصينا أسباب الجفاء الذى كان يشكوه من ممدوحيه وأسباب فشله بعبارة أخرى، فلا شك أن طول مقامه ببغداد واحد من تلك الأسباب التى رجحت عليه غيره من أنداده الشعراء ومن هم أقل فى الطبقة، لأنهم كانوا يغيبون ويحضرون فلا يضن عليهم الأمراء بالعطاء فى السنة بعد السنة أو بعد السنوات، ولأنه كان مقيمًا أمام أعينهم فى كل يوم فلا يلقى عندهم حفاوة الطارق بعد غياب.

وهو لم يرحل تلك الرحلات القصيرة التى كان يظنها غربة طويلة إلا وهو فى إبان القوة والطمع فى الولاية والجوائز. فلما طال عليه الأمر ووطن نفسه على اليأس قعد فى بغداد لا يريمها وقنع بما يتفق له وهو واع فى بلده وأبى أن يجيب من يستدعيه إليه ويحضه على "الحطب لناره . . لأنه يكلفه ركوب البحر وهو أخوف ما يكون من ركوبه.

خضضت على حطبى لنارى فلا تدع ... لك الخير تخويفى شرور المحاطب

أيعزب عنك الرأى فى أن تثيبنى ... مقيمًا مصوتًا من عناء المطالب

وما هى بعد إلا دعوة فيما نظن لم يكن بالمنظور أن تتكرر إذ قل فى الولاة من كان يعنى بشأنه وشأن رزقه فى حالى شبابه ومشيبه، وقل فيهم من كان يرعى حقه ويخلص فى مودته . .

وربما اغتر هو ببعض المجاملة منهم وخيل لنفسه حقًا عندهم فتشفع إليهم فى أتباعهم كما تشفع لمهندى القاسم الأسير المغضوب عليه "وما ضيف

بأضعف من أسير" .. أو كما تشفع لكتابه الذين "أضحوا وهم أسوأ الكتاب أحوالا" .. أو كما تشفع فيما هو أكبر وأجل وهو شكاية الحسن بن عبيد الله إلى أبيه من تقديم أخيه القاسم عليه وترشيحه لعظيم المراتب دونه. إلا أنها شفاعات لا نعرف ماذا أوجبها على ابن الرومى ولا نعرف ماذا كان مصيرها عند المشفوع لديهم، فهى إن دلت على شيء قاطع فإنما تدل على أن قومًا ذوى حوائج كانوا يقصدون فيها من يقبل تبليغها ويأنسون من ابن الرومى تلبية لا يأنسونها فى صحابة الأمراء غيره، وربما أغراهم به سذاجة طبعه وسرعة استمالته. ولا سيما فى وساطة الحسن عند أبيه والتماسه منه أن يسوى بينه وبين أخيه القاسم، لأنه:

ليس يوهى أخاه شدك إيا ٥، ولكن يزيده فى اشتداده

ولا يبعد أن تكون هذه الوساطة علة أعراض القاسم عنه ومجافاته إياه تلك المجافاة التى قيل أنها انتهت بقتله. فغير ابن الرومى لا يقدم على هذه الوساطة وهو جليس القاسم المطالب فى شرعبة تلك الأيام بنصرته على كل من ينافسه ولو جاءت المنافسة من أخيه، إذا يرى الحزم والحكمة أن يتبع الدولة حيث كانت وإلا يعرض نفسه لغضب صاحب الحظوة من أجل أخ له مهجور ضعيف الأمل فى النجاح، فاستشفاع الناس بابن الرومى لا يدل على أكثر من هذا ولا على أكثر من أنهم أرادوا للتبليغ والتذكير عسى أن ينهبوا غافلا ويسمعوا من لم يسمع. وقد يدل على أنه أصيب بسبب هذه الشفاعة فى رزقه وحياته كما يلوح لنا من جرائر الوساطة بين الحسن وأبيه، فأما أن تدل هذه الشفاعات على حق مرعى له عند الأمراء وعناية منهم بأمر رزقه وصيانته فى قربه وبعده فذلك احتمال بعيد تناقضه أخباره وأشعاره على السواء.

وما نخال أن أحداً من ممدوحيه كان بينه وبين ابن الرومى من المؤاخاة فى الأدب مثل ما كان بينه وبين ابى سهل بن نوبخت سليل البيت الفلكى

المعروف، فقد كانت بينهما مساجلات كثيرة تلمح فيها مخاطبة الند والصديق للصديق فى بعض الأبيات، فابن الرومى يغرب فى مدحه فيقول:

أعلم الناس بالنجوم بنونو ... بخت علمًا لم يأتهم بالحساب
بل بأن شاهدوا السماء سموا ... ورقيا فى المكرمات الصعاب

وأبو سهل يجيبه وهو يعتذر من قلة اضطلاعه بجوابه:

هكذا يجتنى الودود من الإخو ... ان أهل الأذهان والآداب
نظم شعر به ينظم شمل المـ ... ـجد كالعقد فوق صدر الكعاب
قد سمعنا مديحك الحسن الغـ ... ـرض ولكن لم نضطلع بالجواب

ومثل هذا الخطاب لا يكون إلا بين رجلين صديقين أو كالصديقين فيما توجبه العلاقة بينهما من الولاء والمعونة. فانظر مع هذا كيف كان أبو سهل فى رعايته لحقه وعنايته بأمره وصيانته لقدره؟ كان كما قال فيه:

لى صديق إذا رأى لى طعامًا ... لم يكد أن يجود لى بشراب
فإذا ما رآهما لى جميعًا ... كفيانى لديه ليس الثياب
فمتى ما رأى الثلاثة عندى ... فهى حسبى لديه من آرابى
لا يرانى أهلا لملك الظهـ ... ـرى ولا موضع العطايا الرغاب
وكأنى فى ظنه ليس شأنى ... لهو ذى نهية ولا متصاب
فى طبع ملائكى لديه ... عازف صادف عن الأطراب
أو حمارية! فمقدار حظى ... شبعة عنده بلا أتعاب
أنا حظى للقاء لديه ... مع ما فيه من الإعجاب
ليس ينعك شاهدًا لى بفهم ... وبيان وحكمه وصواب
ومتى كان صح باب من اللـ ... ـه توقعت منه إغلاق باب

نعم! مع ما فيه من الإعـجاب به والشهادة له بالفهم والبيـان. فقد كان قصارى حقه عند صاحبه هذا وعند أصحـابه الموسرين جميعًا أن يعجبوا به أو يتعجبـوا لفطنته وغرائب أحواله، أو يسجلوه فى الشعر مـساجلة يظهرون بها قدرتهم على مجاراة شـاعر قدير منقطع للشاعرية، أو يسامـروه سمرًا يلهون فيه بحديثه ونوادره ثم يستادوه الثمن غاليًا من صبره وماء وجهه. فإما ما وراء ذلك من نفع ومبرة فـليس من حقه عندهم وليس له منه كمـا قال إلا نصيب الملائكة أو نصيب الحـمير..! ومـا كان واحد من كبـار ممدوحيه عـاجزًا عن إغاثتـه وإصلاح أمره وتدبير عـمل له يناسبه لو صـححوا النية ولم يسـاوموه مساومة التـاجر الشحيح ليأخذوا منه أكثر مما يعطوه. وليـأبوا أن يهبوه ما دام فى وسعهم أن يمـنعوه. ففى قدرتهم كانوا أن اسـتحضروا النيـة فى إصلاحه وجبر نقائصـه وتلافى عيوبه. وفى قدرتهم كانوا إن يجدوا سـببًا واحدًا على الأقل يوجب هذا الحق عندهم من باب الوفاء أو من باب الرحـمة، بيد أنهم لم يجـدوه ولا حاولوا إيجـاده . . . ووجدوا أسبـابًا شتى لحـرمانه وإهمـاله والاعتذار من توجـيه الأعمال إليه واتخاذه للكـتابة أو النظر فى بعض مرافق الديوان.

ونحن نقرأ قوله لأبى سهل الذى تقدم ذكره:

أتزعم أنى إن توليت قربة رأ يت أزورارى عن صديقتى من الفرض؟

وقوله للقاسم:

أركيكا رأيت عبدك صفرًا لأجنى فيه؟ أم جنى شنعاء؟

فنفهم جـملة هذه العلل التى كانوا يعـتلون بها عليه، نفـهم أنهم كانوا يكرهون توليته لئلا يستقل عنهم ويعـرف له موردًا غير موردهم أو أنهم كانوا يحسبون عليه غرارته ذنبًا يحرمه الولاية كما يحرمونه العطاء وكفالة الرزق من جراية لا يكدرها المن والتـسويف، وهى - ولا مراء - أسباب طبيعية للحرمان

فى الحياة نفهمها حين نبحث عن سر حرمانه، ولكنها لا تصلح عذراً للمتفضل الذى يريد الأفضال ولا تعد ميزانًا رفيعًا للمروءة ومكارم الأخلاق. فمن الطبيعى أن يأكل الذئب الحمل وأن يعبث اللئيم بالغرير وأن ينهب المحتال مال الطفل اليتيم والمغتال مال الأعزل الضعيف، إلا أن البون بعيد جداً بين هذه الأسباب الطبيعية فى الدنيا وبين معالى الهمم ومكارم الأخلاق، وأن هذا البون البعيد جداً لهو مناط الحمد واللوم والشرف والضعة والفضل والقصور.

***

وكان لفشل ابن الرومى وحرمانه سبب آخر هو فشله وحرمانه . .

نعم كان فشله وحرمانه سببًا لنفرة الناس منه واتهامهم إياه، فكانوا يلومةنه على بلواه ويعدونها من ذنوبه وخطاياه وكان لومهم هذا بلاء فوق بلاء وحسرة فوق حسرة، وشكاية أشد عليه من سائر الشكايات لأنها تحرمه حق الشكاية:

يا رب ما أطول البلاء وما ... أكثر فى أن بليت لوامى

يلومنى الناس أن حرمت وما ... ألزمنى الله غير إحرامى

فإذا شكا فهو مذنب، وإذا سكت فالرزيئة عنده أعظم من السكوت وهذا آلم ما يبتلى به المنكوب وأظلمه وادعاه إلى المزيد من نكبته وظلمه . . ولكنه كذلك كبيعى مألوف فى الناس، لأنهم لا يكفلون أنفسهم الرأفة بأحد إذا استطاعوا أن يحيلوا عليه جريرة خطاياه! فإذا حرم فما ذاك إلا لأنه محروم مستحق للحرمان بما جناه على نفسه أو بما جناه عليه القضاء، وإذا كان كذلك فهم أولى بالأجفال منه والهرب من عدوى شقائه! وإلا فماذا يصنعون له وهو الجانى على نفسه؟ ثم ماذا يصنعون للقضاء ولا طاقة لهم برد القضاء؟ فمن حرم وفشل فليحرم أبداً ولفشل أبداً، وليكن مصابه حجة للمزيد من مصابه ودليلا على شقاء مكتوب عليه، لا خلاص منه ولا للناس فيه حيلة!

وتضاف إلى ذلك الحرمان نكبات متواليات لا يد لمخلوق فيها ولا هى مما يجنيه إنسان على نفسه أو يرده إنسان عن حوزته، فتحق عليه تهمة الشؤم وتثبت عليه مطاردة الأقدار. ! فلا رأى للعاقل إلا أن يفر منه ويلتمس العصمة والأمان بالبعد عنه . . وقد أطبقت على ابن الرومى النقمتان نقمة الفشل والحرمان ونقمة الفجائع فى أهله وولده والتلف فى زرعه والحريق فى ثرائه والضياع فى عقاره. فالرجل لا ريب مشئوم يستعاذ منه، وطريدة للأقدار لا يجيرها مجير وهو آمن على سربه، فمن غرر بنفسه وعالج خلاص الطريدة من القدر الذى يتعقبها فهو مبتلى لا محالة بمثل بلائها، ثم لا يلومن إلا نحسه ورأيًا سخيفًا سول له التورط فى المهالك وحيل إليه أنه مجير من قدرة الله وراد لما لا مرد لحكمه.

وحق لأبناء القرن الثالث أن يخافوا المشئومين وطرداء القدر لأنه كان عصر السعد والنحس والقلاقل والمفاجآت، مع الإيمان بما يصحب ذلك من الخرافات والأوهام، ولأنه العصر الذى تمت فيه ترجمة الكتب الهندية والفارسية وشاعت بين المسلمين أحاديث النجوم والطوالع ما كان منها خرافيًا كاذبًا وما كان من قبيل العلم الصحيح، وزاد فى شيوع تلك الأحاديث أن الدولة كانت يومئذٍ للفرس وأن آداب المجالس فى قصور الملوك والشرفاء كانت آداب الفارسية والناشئين فى البلاد الفارسية، وكانت لهؤلاء ساعات للسعود وساعات للنحوس ومقارنات بين الأفلاك يطيب معها الطعام والشراب تارة ولا يطيبان تارة أخرى، بل كان لكل شىء فى الأرض والسماء حسابه وإرصاده وبشائره ونذره، فلا يسافر المسافر ولا يتحرك العامل إلا بعد استشارة للنجوم وموافقة لأرصاد الطوالع، ولا عجب أن يدرج الفرس على ذلك وهم أمة عبدت الكواكب زمانًا وجعلت صفات الخير والشر وأسندت إليها تدبير الحوادث وتحويل الدول وتقدير المقادير.

وكأنما شاءت الأقدار أن تهيئ للقرن الثالث كل أسباب العناية بالنجوم

فظهر فى أوائله مذنب "هالى" الذى رأيناه هنا فى دورته الأخيرة قبل عشرين سنة، والذى قال فيه أبو تمام فى تلك الأيام:

وخـوفوا الناس مـن دهياء داهمـة ... إذا بدا الكوكب العـربى ذو الذنب

وصـيـروا الأبراج العـليـا مـرتبـة ... مـا كـان منقلبًـا أو غـيـر منقلب

يقـضون بالأمـر عنها وهى غـافلة ... مـا دار فى فلك منـهـا وفى قطب

وليس يصعب علينا أن نتمثل كيف يكون أثر ذلك المذنب المرهوب أو ل ظهوره فى زمـان كذلك الزمـان وبين أناس كأولئك الأناس قد غـلب عليهم الاشتـغال بالتنجـيم صادقـة ومكذوبه وكثر بـينهم جدًا من يعلقـون حوادث الأرض بأنباء النجوم . .

ولقد تردد ذكـر السعـود والنحوس وأسمـاء الكواكب فى كلام شـعراء القرن الثالث والقـرن الذى بعده من أثر هذه العوامل كلها فـألم إليها أبو تمام والبـحتـرى مرارًا وأفـرط ابن الرومى فى الإشـارة إليـها لأنه كـان أعلم من صاحـبيه بهـذه المطالب. وتمادى الأمر بمن بعـدهم حتى أصـبح درس النجوم فريضة على كل رجل مثقف مطلع على آداب زمانه ولو كان كالمعرى مكفوف البصـر غير صالح للتـوسع فى هذا الباب. فكان رهن المحبسـين يذكرها فى سقط الزنـد واللزوميات ويصف مـواقفـها ويتكلم عن مـقارناتها كـأنه فلكى مشتغل بصناعته وليس بأديب ضرير واضح العذر فى جهل هذه الصناعة.

ثم اتفق أن راجت عـقيدة النجـوم فى الأسرتين اللـتين علق بهـما ابن الرومى وكان لهـما نصيب من شعـره ومدحه وعـتابه أكبر من نصـيب سائر ممدوحـيه: نعنى أسـرة بنى طاهر وأسـرة بنى وهب، وهما أقـوى وأغنى من حكم فى ذلك الزمـان من الأسـر التى تصـرفت فى الدولة وتصـدى أبناؤها للمدح والعطاء وتوليه الأنصار وعزل الخصوم، فلمـا مات محمد بن عبد الله ابن طاهر وخسف القـمر تحدث أهلـه وتحدث الناس أن القمـر خسف لموته،

وكتب ذلك المؤرخون فيما كتبوا من تاريخه، وذكره ابن الرومى فى بعض شعره فقال:

بات الأمير وبات بدر سمائنا هذا يودعنا وهذا يكسف

قمر رأى قمراً يجود بنفسه فبكى عليه بعبرة لا تذوق

وكسفت الشمس مرة فخاف القاسم بن عبد الله "بن سليمان بن وهب" أن يكون كسوفها مؤذنًا بموت عظيم فى الدولة وهلع لذلك فكان ابن الرومى هو الذى هدأ روعه ونصح له باللهو والسماع للتسرية عن نفسه وكتب إليه:

لا تهولنك شمس كسفت دون أن تطلع من مغربها

هان ذاك الرزء فيها مثلما هان ما عزك من مطلبها

هى نار وأفقت مطفئها ليست بالآيس من ملهبها

فأبك من تشق من معطبه فلقد أومنت من معطيها

ضل باك أن أبيخت جمرة سوف تذكيها يدًا مشقبها

ليس للشمس إذا ما كسفت غير شمس تخلف الشمس بها

من بنات الروم لا يكذبنا لونها المشرق عن منصبها

وأنها لفكاهة مضحكة من فكاهات الخطوب أن يكون ابن الرومى مهدئ روع فى هذا وهو أحوج إنسان إلى من يهدئ روعه ويذهب عنه الوجل من نذر الزمان وعلاماته!!

فالخوف من شؤم صاحبنا كان من أقوى أسباب فشله واجتنابه، وفى بعض معاتباته إشارة صريحة إلى تطير أبناء طاهر وأبناء وهب من هذا الشؤم واجتنابهم إياه بعد أن جاءتهم الدولة وزخرف لهم النعمة، مخافة على

سعودهم أن يدركها طائف من شقائه ونحسه، فكان يقول لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر يدفع عن نفسه هذه التهمة:

نحن ميامين على أننا ... على أعادئك مشالهم
لما دخلنا دخلت نعمة ... كان لها حولك تحويم
ولم يفخمك الذى نلته ... بل للعطايا بك تفخيم

وكان يقول القاسم بن عبيد الله:

طلعت بأيمن ما طائر ... عليكم وأسعد ما طالع
فجاءكم دولة غضة ... تفيا فى ثمر يانع

وكأنما كان نحاسدوه ومزاحموه يعرضون بشؤمه لبنى وهب وينسبون إليه ما يكره الوهبيون من رحلة أو مشقة، فكان يبرأ إليهم ويسرع إلى تفنيد ما نسبوه إليه قبل أن يحسب عليه، وما هو فى حاجة عندهم إلى اختلاق الذنوب:

ولقد خفت والبرىء ملقى ... كل ذنب برأسه معصوب
أن يقول الوشاة بى أن شؤمى ... قاد هذا الشخص، والإفك حوب
وجوابى أن لم يغيبوا وشاهد ... ت فزالت مخاوف ونكوب
أنا من لا شك فى اليمن منه ... أو يمين ابن فجرة ويحوب
جئت والدولة السعيدة خلفى ... رأسها فى مقادتى مجنوب

***

فحسب الإنسان فى ذلك العصر أن تلوح عليه شبهة من السعد أو النحس فيقال أنه مسعود أو منحوس، ثم تلزمه التهمة وتلصق به طول حياته وتشتد لصوقها به إذا كان فى أحواله وأخلاقه ما يغرى الناس بالإلحاح فيها

والإصرار عليها. وهل كان شيء من ذلك ناقصًا عند ابن الرومى؟ كلا! بل عنده كل شبهة النحس لأنه كان عالمًا ذكيًا ولا حظوة ولا جاه، فما الذى يحول بينه وبين حظوة أمثاله إلا أن يكون الجد العاثر والطالع المشئوم؟! ولأنه فقد أباه وأمه وأخاه وزجته وأبناءه وعاش بعدهم كئيبًا حزينًا مستهدفًا للبلاء من الأيام والناس. وهل يفقد كل هؤلاء ويعيش بعدهم فى تلك الحال إلا المنكود المرزأ المنحوس؟ ولأنه منى كما رأينا بالجراد فى ضيعته والحريق فى ماله والضياع فى عقاره. وهل يمنى بذلك - مع مصائب الموت والضنك - إلا من شمله النحس فى شبكة لا نجاة منها لمشبوك؟

ثم هل كان ابن الرومى مبرءًا من تلك الخلائق التى تغرى به أهل العبث والمجون وفيلحون عليه بتهمة الشؤم ويتفكهون بما يؤلمه من ذلك ويؤذيه؟ لا! بل كان الرجل أول المتفائلين المتشائمين وأول من يسوغ للناس التباشر والتطير، ولزمته الحجة من ذكائه وأدبار حظه ومن مصائبه فى ذنوبه وصحبه، فكان الذكاء نكبة عليه تعد فى النكبات، والمصائب ضعفين ما يصيبه نم شرها وما يصيبه من سمعة نحسبها وولع العابثين بالسحر منها، وأنه لمصاب عظيم.

ولقد رأينا أن أخاه أبا جعفر كان يكتب لرجل فعزل الرجل حديثهم فى كل نكبة وفى كل نعمة، ولو أنصف القوم لكانوا كلهم مشئومين منحوسين إذ كانوا كلهم قد فجعوا فى الأصحاب والأنصار وشهدوا نكبات الأخبار والأشرار. وإذ كان ابن الرومى قد فقد أعداءه كما فقد أحبابه فلا فضل لشؤمه على سعده ولا رجحان لطوالع الخيرات فيه على طوالع الشرور. ولكنها الحظوظ التى لا تعرف القسط فى الموازين!! ومن الحظوظ التى ألمنا بأسبابها أن يكون ابن الرومى منفردًا بسمعة الشؤم فى ذلك العصر دون سائر المشئومين!!

وسواد الناس لا ينصفون مختارين، ثم هم لا ينصفون إذا كان الإنصاف يكلفهم واجبًا أو يحرمهم فكاهة يضحكون منها! فليس لابن الرومى إذن إلا

أن يبوء وحده بجزيرة ضعفه وعقائد زمنه، فغاية الحكم فيه أنه ولد مقضيًا عليه بالفشل وعاش فى زمن لا رحمة فيه لمثله، ووجب أن يترك لقضائه يصنع به ما لا حيلة فى دفعه.

أن من الباحثين من يرى أن رجال الفنون فى الجماعة الإنسانية كالأ

طفال فى الأسرة لابد لهم من رعاية تكتنفهم وأمداد قومية تغنيهم عن السعى لأنفسهم، لأنهم لا يحسنون حيل السعى ولا يجيدون عملهم إذا تفرغوا لممارسة العيش وإتقان حيله، فإذا التمس هؤلاء الباحثون مثلا يدعمون به رأيهم فما نخالهم يجدون فى تاريخ الآداب مثلا أصلح من شاعر كابن الرومى فى زمان عجيب متناقض كأواسط القرن الثالث للهجرة.

طيرته

الطيرة شعبة من مرض الخوف الناشئ من ضعف الأعصاب واختلالها الذى أشرنا إليه فى الكلام على مزاج الشاعر، إلا أنها خوف خاص له بواعثه وأعراضه، وهى فى ابن الرومى خلة خاصة قد بلغت مداها ولبست ألوانها غير ألوانها فى أكثر المتطيرين، بحيث وجب أن نفردها بالبحث فى هذه لاكلمة ببعض التفصيل.

فاصل البواعث التى أصابت ابن الرومى بداء الطيرة هو اختلال الأعصاب قبل كل شىء.

فالرجل السليم لا يتطير ولا يتشاءم، لأنه ينتظر من الدنيا خيرًا ولا يحس النفرة بينه وبينها، ومن ثم لا يحس الخوف والتطير منها.

وقد تصادفه الحوادث كما تصادف الناس كافة فتقع على نفسه موقعًا خفيفًا يملك معه عزمه ويضبط معه شعوره، فهو فى غنى عن الحذر والتوجس مذ كان يلقى الخطر - حين يلقاه - بعدة كاملة ونفس مطمئنة، لا يتسلف الفزع منه قبل وقوعه ولا يفرط فى الفزع منه متى وقع واستحال عليه

دفعه. وقد تؤدى به هذه الطمأنينة إلى نقيض الطيرة، فيحتجب عنه الخطر الصحيح والمتوهم على السواء، ويستلسم للأمن الصادق والكاذب استسلام المتطير لكاذب الخوف وصادقه وظاهر الوهم ومكنونه، فهو أبدًا فى حالة سلم وأمان، إذ يكون المتطير أبدًا فى حالة حرب وارتياب.

هذه طبيعة السليم من حيث التطير خاصة والخوف من الطوارئ عامة.

أما مختل الأعصاب فالصغائر مكبرة فى حسه والأشباح والأطياف كثيرة فى وهمه، يتخيل ويتوهم، ثم يفزع مما يتخيل ويتوهم، ثم يزيده الفزع من الأخيلة والأوهام فإن كان إلى ذلك شاعرًا وكان خياله قويًا فللطيرة فيه معين لا ينضب من الخلق والابتكار والطوارق.

وتتوارد عليه المنبهات - وكل طارق فى الدنيا منبه لأصحاب هذا المزاج - فيتيقظ فيه الشعور بالخطر ويلمح المخاوف حيث لا يلمحها الآخرون. كما هو الشأن فى كل مستحضر للحذر متوقع للمفاجأة.

فأنت تسير فى الطريق المأمون فلا تزعجنك نبأة ولا يلفتك ما قد يوجب التلفت. ولكنك إذا أدلجت فى الأجمة المرهوبة واستحلك الليل حولك إليك أنك تسمع فى كل همسة فحيح أفعى وفى كل نفخة همهمة أسد وفى كل خطبة تليك هجمة عدو ينتحبك بمكروه، وما اختلف على حسك بين الطريق المأمون والأجمة المرهوبة إلا اختلاف التوقع واستحضار الحذر من كل مجهول غير منظور، وذلك هو موضع الاختلاف بعينه بين المتطيرين وغير المتطيرين.

ولقد كان ابن الرومى أوعى لنفسه من أن تخفى عليه طبيعة الحذر المركبة فيه: فهو يشعر من دخيلة طبعه بأنه حذور، ويعلم إلا مفر له من الحذر فيتخذ من الضرورة فضيلة - كما يقولون - ويزعم أن الحذر باب الأمان:

فآمن ما يكون المرء يومًا إذا لبس الحذار من الخطوب

ويحتج لذلك بحجج كثيرة من القرآن والحديث والمنطق والروايات كما مر بك فى أخباره، ثم لا يشك فى أنه محق مصيب ضعفت حجته أو قويت وصدقت محاذيره أو كذبت. لأن الحجة فى العقائد الشعورية تلحق العقيدة وللا تسبقها، وتؤكدها إذا وافقتها ولكنها لا تفندها إذا عارضتها.

***

ومن روافد الطيرة فى ابن الرومى ذوق الجمال وتداعى الخواطر.

فالنفس المطبوعة على ذوق الجمال تفرح وتتهلل للمناظر الجميلة السوية وتنفر وتنقبض من المناظر الدميمة الشائهة. ويصاحب الفرح الإقبال والاستبشار والرغبة ويصاحب النفور الحزن والإنكار والتشاؤم والكراهة، وليس أقرب من المسافة بين النفور والطيرة إذا دق الحس وغلب عليه الحذر وأصبح الانقباض عنده نذيراً يثنيه ويقتضب عليه طريق أمله.

أما تداعى الخواطر فصاحبه أبداً يستخرج من الكلمة أو الفكرة غاية ما تؤدى إليه وتتقلب عليه: ومتى كانت طبيعته الحذر ومزاجه مركبًا على التشاؤم فليس أسهل من اتجاه خوطره السريعة إلى حيث ألفت طبيعته واستمر مزاجه.

فلكل كلمة عنده سر ولكل سر مخافه! ويسير عليه أن يعرف ذلك السر ويكشف تلك المخافة لأنه سريع حركة الذهن ينتقل كومضة البرق بين المعانى ومشابهاتها ومناقضاتها وبين الكلمات وما يجانسها ويشاكل حروفها وأوزانها، فلا يشق عليه أن يعثر بطلبته الموافقة لنزعة طبعه ومتوجة ذهنه عند معنى من تلك المعمانى ومشاكله من تلك المشاكلات.

وذوق الجمال وتداعى الخواطر كانا فى ابن الرومى على أدق وأيقظ ما يكونان فى إنسان. كانت له عين خاطفة تلتهم الألوان والأشكال التهام الجائع المنهوم الذى لا يشبع. وقد عرفنا أمثلة من ذلك فى دقة تشبيهاته وأحكام صوره وغرابة التفاته إلى مواقع للنظر لا يلتفت إليها شاعر غيره. وسنعرف

أضعاف ذلك عند الكلام على عبقريته وفنه وأسلوبه فى تناول الحس وتصويره.

ثم كان مع هذه النظرة الخاطفة يشنأ القبح ويحسبه ذنبًا يعاف ويستر، وكان يبالغ فى إخفائه من نفسه إذا ابتلى به كما يبالغ فى إخفاء صلعه والسخط على من يسألونه عنه! فالقبح عنده شر أو نذير بالشر، ولا يرى الأحدب أو الأعور أو الخصى أو الأشقر الذى يحكى لون وجهه لون الجلد المسلوخ أو غيرهم من المشوهين الخارجين عن سوء الخلقة إلا انقبضت نفسه وأسرع إليه ما يلازم الانقباض من التوجس والحذر والوجوم.

وتداعى الخواطر ملحوظ فى جميع شعره لا يستدل منه بغرض دون غرض ولا بقصيدة دون قصيدة، فهو يسلسل المعنى ويشبعه حتى يستنفد، وكلما عن له خاطر لحق به ما يقاربه ومن يناسبه حتى تبطل المناسبة ويضطر إلى الوقوف. هذا فى المعانى. أما فى الألفاظ فإنه يغوص فى تصحيف حروفها مثل هذا الغوص ويستخرج البعيد والقريب من رموزها وقراءتها ويستنبط منها ما يشاء من ملامح اليمن والشؤم ودفائن المدح والذم . . فجعفر عنده تساوى "جاع وفر" والخان يذكره بالخيانة.

فكم خان سفر خان فانقض فوقهم كما انقض صقر الدجن فوق الأرانب

ويلعب بتصحيف الكلمات فى السمع والخط أحيانًا لينقلها إلى المدح أو الهجاء فيقول فى القيان"

لا تلح من تفتنه "قينة" فإن تصحيف اسمها "فتنة"

ويقول فيمن اسمه ابن "هرثمة"

عائد دهره إذا سطع النقـ ـع بمعنى مصحف اسم أبيه

وتصحيف هرثمة هو "هزيمة"

ويجعل عمر "عيراً" بقوله:

يا عمرو لو قبلت ميم مسكنة ياء محركة لم تخطئ الفقر

أو يفعل ذلك فى الاسم الواحد ممعنًا أشد الإمعان فى استخراج التصحيف للمدح والذم كما فعل فى اسم اسحاق مادحًا وهاجيًا فقال وهو يمدح:

وأسلم ابا إسحاق لابس غبطة وعداك للأبعاد والاسحاق

وقال وهو يهجو وأبعد جدًا فى تصحيفه:

يا أبا إسحاق وأقلب نظم اسحاق وصحف

وأترك الحاء على حا ل فمما للحاء مصرف

يشهد الله لقد أصبح ت عين المتخف

فتبدل اسم "اسحاق" بعد قلبه وتصحيف قافه فاء وسينه شينا وإثبات حائه على حالها فخرج من هذه العملية الطويلة "فاحشًا" . . وليس بينه وبين الأصل صلة كما ترى إلا ما عرض له من التصحيف والتحريف من أبعد طريق.

وقد يذهب ذهنه إلى الصورة التى تنقلب إليها الأسماء بعد اللثغ المضاعف كما قال فى أبى على بن أبى قرة:

أنت عندى وشيخك السيد الما جد لا شك ثادقًا الكنيتين

ليس فى منطق الفصح ولكن حين يكيمها أخو لثغتين

مبدل لام كل لفظ بياء مبدل قاف كل لفظ بغين

فيصبح على بن أبى قرة فى لغة الألثغ وهو عيى بن أبى غرة بكسر العين! ولولا السرعة فى تداعى الخواطر وخلق المناسبات لما وصل إلى هذا التصحيف فى الاسمين.

وقد يعكس اللفظ ليستخرج منه فألا لغيره كما صنع بكلمة "سكان" حين انحدر العلاء بن صاعد يريد واسطًا فتحركت ريح الجنوب حركة عظمت مها الأمواج فانكسر السكان فرجع. فقال ابن الرومى:

رأيت منكسر السكان ظاهره هول وتأويله فأل لمنجاكا

. . . . . .

لأن لفظة "سكان" إذا قلبت حروفها "ناكس" لاشك فى ذاكا

وإن عقلا كهذا العقل المطبوع على سرعة التنقل بين المعانى والألفاظ وما يتفرع عليها ويتسلسل منها ليس بالغريب أن يعتدى إلى مكامن الطيرة والشؤم فى كل معنى وكل كلمة، ولا سيما إذا رانت على نفسه الخيبة وقدر الفشل فى كل خطوة واقترن ذلك بالإحساس المتوفر المتربص الذى لا تضبطه عزيمة ولا تحكمه صرامة فى الفطرة.

وتداعى الخواطر بهذه السرعة من الحالات التى تتقارب فيها العبقرية والجنون كما تقدم فى الكلام على مزاج الشاعر، فيثب العبقرى فى لمحة عين من المعنى إلى شبيهه أو نقيضه ويصل بين القطبين البعيدين بسلسلة من المشابهات والمناقضات دقيقة الحلقات لا يتبينها الناظر إلا بعد التوضيح والجهد الجهيد فى التنبيه لمداخلها وتعقب أوصالها والجرى معها جريًا يتعبه ولا يسره لأول وهلة. وتسمع المجنون يتكلم فإذا هو يخلط ويأتى بالمفارقات ولكنه فى داخل ذهنه يجمع بينها بمناسبات ترب منها ما نأى وتؤلف ما تبعثر، غير أن الجنون عقيم منبت والعبقرية مثمرة نافذة. وهذا هو الفرق الكبير بين الشذوذين المتناقضين أى بين اسمى ما يرتقى إليه الذهن وأوضع ما ينحدر إليه.

وإليك مثلا هذه الأبيات التى قالها ابن الرومى فى هجاء ابن طالب الكاتب:

أزيرق مشئوم أحيمر قاشر لأصحابه، نحس على القوم ثاقب
وهل أشبه المريخ إلا وفعله لفعل نذير السوء شبه مقارب
وهل يتمادى الناس فى شئوم كاتب لعينيه لون السيف شبه مقارب
ويدعى أبوه طالبًا وكفاكم به طيرة أن المنية طالب
إلا فاهربوا من طالب ابن طالب فمن طالب مثيلهما طار هارب

فبهذا المثل نستطيع أن نتتبع مداخل الطيرة إلينفس ابن الرومى من جانب "ذوق الجمال" ومن جانب "تداعى الخواطر" فى وقت واحد، ونستطيع أن نراقب ذهنه وهو يعمل فى حركته السريعة بين الأشكال والألوان والألفاظ والمعانى كما نراقب البنية الحية وهى تعمل من وراء المجاهر والكواشف. فانظر إلى ألوان الوجه "الأحيمر" القاشر وإلى السوء والبلاء أين هما وماذا يجمع بينهما من الصلة والمناسبة؟ لا صلة ولا مناسبة! ولكن ضع بينهما المريخ ولونه الأحمر ثم ضع مع المريخ ما اقترن به فى الأساطير من خصائص الحرب والفتنة تنتظم العلاقة وتنعقد المناسبة من جميع أطرافها، وقل مثل ذلك فى لون العين ولون السيف القاضب! وفى "الطالب" الذى لا يقابله إلا "الهارب" وفى "الطلب" الذى يعقد الشبه بين الموت وذلك الكاتب! وفرق هذا كله فإذا هو أبعد المتفرقات . . واجمعه كما جمعه ابن الرومى فإذا هو أقرب المناسبات وألزم العلاقات.

ولقد ضاعف العصر ما فى نفسه من الاستعداد للطيرة من هذه الجوانب الكثيرة فاستعصى عليه علاجها وسهلت عليه مطاوعتها والإغراق فيها. فقد كان أصح الأصحاء فى عصره يصدق الطوالع ويؤمن بالسعد والنحس والتفاؤل والتشاؤم، فزعم ابن الرومى أن الطيرة موجودة فى الطبائع وأنه ما من أحد ألا يتفاءل بأشياء ويتشاءم بأشياء ويتخذ العلاقات من ظواهر الزمان لخفاياه، ومن قلتات لسانه لما فى دخائل ضميره!

وكثر التصحيف فى زمنه، بل كثر فى بيت من بيوت الرؤساء التى اتصل بها وتردد عليها فى مجالس سمرها ولهوها، وهو بيت بنى طاهر ولاة الحكم فى خراسان والشرطة ببغداد. ومن رءوسه عبد الله بن طاهر الذى قال ملغزًا فى اسم ظريف:

اسم من أهواه اسم حسن ... فإذا صحفته فهو حسن

فإذا أسقطت منه فاءه ... كان نعتًا لهواه المختزن

إلخ .. إلخ ..

ومن رءوسه عبيد الله الذى كان يعرض الشعر على ابن الرومى ويقترح عليه تصحيفه كما ترى فى ديوانه.

فتمكنت عادة التصحيف فى ذهنه وجاءت الطيرة فوجدت منها أداة صالحة لخلق دلائل الشؤم واستنباط الإشارات الخفية من ظواهر المعانى والألفاظ.

على أننا - مع توافر هذه البتواعث فى مزاجه وعصره - نلاحظ أن الروايات التى ذكرا عن طيرته لا ترجع واحدة منها إلى ما قبل الخمسين من عمره، فرواية ابن المسيب التى يقول فيها ابن الرومى فزع من رؤية الحول والعور فى المهرجان ترجع إلى مهرجان سنة ثمان وسبعين، أى حين كان ابن الرومى فى السابعة والخمسين. والنوادر التى حكيت عن الأخفش لا يظن أنها حدثت قبل نيف وسبعين ومائتين، لأن الزبيدى يخبرنا أن الأخفش كان له تلاميذ يملى عليهم هجاء ابن الرومى فيه، ويغلب إلا يكون للعالم حلقة يجلس فيها للتدريس قبل الثلاثين. والأخفش مات سنة ست عشرة وثلاثمائة عن نحو ثمانين سنة، فكان ابن الرومى فى الخمسين حين جاوز الأخفش الثلاثين.

والرواية التى نقلت عن إبراهيم كاتب مسروق البلخى وحضرها برذعة

الموسوس صاحب سنة تسع وسبعين ومائتين أى حين بلغ ابن الرومى الثامنة والخمسين فيرجع إذن أن الطيرة الشديدة فى ابن الرومى كانت عارضًا من عوارض الشيخوخة، وأنه أفرط فيها بعدما ابتلى من الآلام والأحزان وساورته المخاوف من كل جانب وقل حوله المؤاسى والرفيق، وللشيوخ كافة ميل إلى تصديق الأساطير واستطلاع الغيوب وما يدخل فى باب العيافة والزجر على العموم، فابن الرومى فى شيخوخته أحجى أن يصاب بهذه العاقبة التى ادخرها له المرض والمزاج والعصر وحوادث الأيام.

إلا أننا يجب أن نحسب هنا حسابًا للمبالغة التى تدخل على كل شهرة وتغرى الناس باختراع الأقاويل وإضافة النوادر بتلك الصفة وينفرد فيها بالظهور. فقد يكون الموضوع من أخبار هذه الطيرة أكثر من الصحيح، وقد يكون الصحيح مشوبًا بالمبالغة والإطناب.

عقيدته

تقدم فى الكلام على الحالة الدينية فى القرن الثالث للهجرة أنه كان عصرًا كثرت فيه النحل والمذاهب وقل فيه من لا يرى فى العقائد رأيًا يفسر به إسلامه، وبخاصة بين جماعة الدارسين وقراء العلوم الحديثة.

فابن الرومى واحد من هؤلاء القراء لا ننتظر أن تمر به هذه المباحث التى كان يدرسها ويحضر مجالسها ويسمع من أهلها بغير أثر محسوس فى تفسير العقيدة. فكان مسلمًا صادق الإسلام ولكنه كان شيعيًا معتزلا قدريًا يقول بالطبيعتين، وهى أسلم النحل التى كانت شائعة فى عهده من حيث الإيمان والدين.

وقد قال المعرى فى رسالة الغفران أن البغداديين "يدعون أنه متشيع ويستشدون على ذلك بقصيدته الجيمية" ثم عقب على ذلك فقال: "ما أراه إلا على مذهب غيره من الشعراء".

ولا ندرى لماذا شك المعرى فى تشيعه لأنه "على مذهب غيره من الشعراء" . . فإن الشعراء إذا تشيعوا كانوا شيعة حقًا كغيرهم من الناس وربما أفرطوا فزادوا فى ذلك على غيرهم من عامة المتشيعين، وإنما نعتقد أن المعرى لم يطلع على شعره كله فخفيت عنه حقيقة مذهبه، ولولا ذلك لما كان بهذه الحقيقة من خفاء.

على أن القصيدة الجيمية وحدها كافية في إظهار التشيع الذى لا شك فيه، لأن الشاعر نظمها بغير داع يدعوه إلى نظمها من طمع أو مداراة، بل نظمها وهو يستهدف للخطر الشديد من ناحية بنى طاهر وناحية الخلفاء، فقد رثى بها "يحيى بن عمر بن حسين بن زيد أبى على" الثائر فى وجه الخلافة ووجه أبناء طاهر ولاة خراسان، وقال فيها يخاطب بنى العباس ويذكر "ولاة السوء" من أبناء طاهر:

اجنو بنى العباس من شنآنكم ... وأوكو على ما فى العياب واشرجوا[1]

وخلوا ولاة السوء منكم وغيبهم ... فأحر بهم أن يغرقوا حيث لججوا

نظار لكم أن يرجع الحق راجع ... إلى أهله يومًا، فتشجوا كما شجوا

على حين لا عذرى لمعتذر بكم ... ولا لكم من حجة الله مخرج

فلا تلقحوا الآن الضغائن بينكم ... وبينهم، أن اللواقح تنتج

غررتهم، لئن صدقتهم أن حالة ... تدوم لكم، والدهر لونان أخرج

لعل لهم فى منطوى الغيب ثائرًا ... سيسمو لكم، والصبح فى الليل مولج

فماذا يقول الشيعى لبنى العباس أقسى وأصرح فى التربص بدولتهم وانتظار دولة العلويين من هذا الكلام؟ فقد أنذر بنى العباس بزوال الملك وكاد يتمنى - أو تمنى - لبنى على يومًا يهزمون فيه أعدائهم ويرجعون فيه حقهم

(١) وكى القربة ربطها وأشرجها ضمها والمقصود: أخفوا يا بنى العباس ما فى صدوركم من بغض العلويين.

ويطلبون تراثهم وينكلون بمن نكل بهم. وهواه ظاهر مع العلويين لا مداجاة فيه كهوى كل شيعى فى هذا المقام. على أنه كان أظهر من هذا فى النونية التى تمنى فيها هلاك أعدائهم ولام نفسه على التقصير فى بذل دمه لنصرتهم.

أن يوالى الدهر أعداء لكم ... فلهم فيه كمين قد كمن
خلعوا فيه عذارى المعتدى ... وغدوا بين اعتراض وأون[1]
فاصبروا يهلكهم الله لكم ... مثل ما أهلك أذواء اليمن
. . . . . .
قرب النصر فلا تستبطئوا ... قرب النصر يقينا غير ظن
ومن التقصير صونى مهجتى ... فعل من أضحى إلى الدنيا ركن
لا دمى يسفك فى نصرتكم ... لا ولا عرضى فيكم يمتهن
غير أنى باذل نفسى وأن ... حقن الله دمى فيما حقن
ليت أنى غرض من دونكم ... ذاك، أو درع يقيكم ومجن
أتلقى بجبينى من رمى ... وبنحرى وبصدرى من طعن
أن مبتاع الرضى من ربه ... فيكم بالنفس لا يخشى الغبن

وليس يجوز الشك فى تشيع من يقول هذا القول ويشعر هذا الشعور، فإنه يعرض نفسه للموت فى غير طائل حبًا لبنى على وغضبًا لهم وإشهارًا لعاطفة لا تفيده ولا تفيدهم، وقد كان لا يذكر يحيى بن عمر إلا بلقب الشهيد كما ذكره فى القصيدة الجيمية وفى خاطرة أخرى مفردة نظمها فى هذين البيتين:

كسته القنا حلة من دم ... فأضحت لدى الله من أرجوان
جرته معانقة الدارعـ ... ـين معاملة القاصرات الحسان

(١) الأرن النشاط وإظهار القوة.

وبعض هذا يكفى فى الدلالة على تشيعه للطالبين واتخاذه التشيع مذهبًا فى الخلافة كمذهب الشعراء، أو غير الشعراء . . ولا سيما التشيع المعتدل الذى يقول أهله بجواز أمامة المفضول مع وجود الأفضل ويستنكرون لعن الصحابة الذين عارضوا عليًا فى الخلافة، ومعظم هؤلاء من الزيدية الذين خرجوا فى جند يحيى بن عمر لقتال بنى العباس. فهم لا يقولون فى نصرة آل على أشد مما قال ابن الرومى ولا يتمنون لهم أكثر مما تمنى.

ويلوح لنا أن الرومى ورث التشيع وراثة أقرب إلى مذهب قومها الفرس فى نصرة العلويين، ولأن أباه سماه عليًا وهو من أسماء الشيعة المحبوبة التى يجنبها المتشددون من أنصار الخلفاء، ولا حرج على أبى الشاعر أن يتشيع وهو فى خدمة بيت من بيوت العباسيين، لأن مواليه كانوا أناسًا بعيدين من الخلافة وولاية العهد وهما علة البغضاء الشديدة بين لاعباسيين والعلويين، وقد اتفق لبعض الخلفاء وولاة العهد أنفسهم أنهم كانوا يكرمون عليًا وأبناءه كما كان مشهورًا عن "المعتضد" الخليفة الذى أكثر ابن الرومى من مدحه، وكما كان مشهورًا عن "المنتصر" ولى العهد الذى قيل أنه قتل أباه "المتوكل" جريرة ملاحاة وقعت بينهما فى الذب عن حرمة على وآله.

ومع هذا لم يخطئ المعرى حين ظن أن للشعراء تشيعًا غير تشيع الدين والعصبية، إذ كان الشعراء فى كل زمن يؤخذون بالعاطفة وتستجيشهم البواعث الحية التى تجيش لها القولب من حولهم، وكانت العاطفة أبدًا مع بنى على حيث كانت المصلحة أبدًا مع بنى العباس. وقد برز هذا الفارق فى مقتل يحيى بن عمر خاصة لأنه كان محبوبًا معطوفًا عليه لشجاعته ونخوته وكرم نفسه وشبابه وجماله، وكان معذورًا فى خروجه على العباسيين لأنهم حرموه رزقه حتى عز عليه القوت وجاع وأترب وتبين ذلك لأنصاره فكانوا يعرضون عليه الطعام فيأباه، ويقول: "إن عشنا أكلنا" . . وفى ذلك يقول ابن الرومى من القصيدة الجيمية":

في الحق أن يمسوا خماصًا، وأنتم يكاد أخوكم بكنه يتبعج
وتمشون مختالين في حجراتكم ثقال الخطى أتغالكم تترجرج
وليدهم بادي الضوى، ووليدكم من الريف ريان العظام خولج

وقد بلغ من حبه في قلوب الناس أنه لما قتل التمس قتلته أحدًا يعالج رأسه كما تعالج رءوس القتلى لتحفظ وتنصب فأعياهم أن يجدوه، وطال بحثهم عنه حتى عثروا برجل من أراذل السوقة رضى أن يصنع بالرأس ما لم يرضه الآخرون. ثم أرادوا نصبه في بغداد، فهاج أهلها وماجوا وخيفت الفتنة فأنزلوه ولما يكد يرفع، ولم يعرف في تاريخ الطالبيين أحد حزن الناس لموته، واضطربوا كحزنهم واضطرابهم لقتل يحيى بن عمر. ففي غضب ابن الرومي شيء كثير من غضب الشاعرية أو من غضب السليقة الحساسة التي لا يسعها أن تهدأ وتفتر والقلوب حولها جائشة والصدور مكظوظة والطبائع نافرة. ولا تنسى أنه رثى يحيى وهو دون الثلاثين في سن للعاطفة عليها سلطان عظيم وللحزم عليها سلطان ضعيف. ولكن أتراه - لولا العقيدة - كان يكرر هذا الغضب ويخرج هذا الخروج عن الحذر؟ أكان يجازف بحياته ويقول في النونية أشد مما قال في الجيمية التي هيج لها هذا الهياج وساوره فيها الحزن كما ساور ألوف المحزونين؟

* * *

وبعد فيجب أن نذكر في هذا السياق أن ابن الرومي رثى محمد بن عبد الله بن طاهر الذي تولى حرب يحيى وجلس لقبول التهنئة بقتله. ففي هذه الملاحظة ما يجوز أن يلقي الشبهة على جده في التشيع ولدده في الخصومة للمذهب. فإذا أردنا أن نذكر ذلك وجب أن نذكر معه أمورًا كثيرة تصحح تلك الملاحظة وترد تلك الشبهة. وهي: أن ابن الرومي لم يكن قط لدودًا في خصومه ولا صارمًا في عصبية، وأن محمد بن عبد الله طاهر مات بعد مقتل

ليحيى بثلاث سنوات سكنت فيها سورة الحزن وفترت حدة الغضب، وأن أبناء طاهر كانوا حماة لابن الرومى يمدحهم ويرثيهم ويختلف إلى قصورهم ويدخل فيما بينهم من منافسة ومصالحة بين أقطابهم. فأولى أن نذكر هنا أنه نسى ذلك كله وهجاهم وثار عليهم فى سورة الحزن فرماهم بما نسميه الآن "الخيانة العظمى" واتهمهم بالكيد لبنى على وبنى العباس على السواء وأنهم يأتمرون بالدولة العربية الإسلامية ليقيموا على أنقاضها دولة الفرس القديمة؟ فقال لهم فى القصيدة الجيمية أنكم لو أمكنتكم فى الفريقين فرصة . .

إذن لا ستفدتم منهما وتر فارس ... وإن ولياكم، فالوشائج أوشج

أبى أن تحبوهم يد الدهر ذكركم ... ليالى لا ينفك منكم متوج

وأنى على الإسلام منكم لخائف ... يوائق شتى بابها الآن مرتج

وتلك سورة متشيع ناقم لا يبالى ما يقول وقد ملكه الحزن ونسى العواقب وراح يخبط فى تهم وحزازات كان أهونها يطير بالرأس فى تلك الأيام.

ويصح أن نذكر بعد ما تقدم أن الطاهريين كانوا فى بواطنهم متشيعين يضطرون اضطراراً إلى حرب بنى على وقبول التهنئة بموتهم كما كان الطالبيون أنفسهم يضطرون إلى شهود محافل التهنئة وهم مطويون على الحزن الأليم والثأر المقيم. ويقول ابن الأثير أن سليمان بن عبد الله بن طاهر انهزم اختياراً فى حرب الحسن بن زيد العلوى الذى ثار بعد مقتل يحيى بن عمر "لأن الطاهرية كلها كانت تشيع". فلما أقبل الحسن بن زيد إلى طبرستان تأثم سليمان من قتاله لشدته فى التشيع وقال:

نبئت خيل ابن زيد أقبلت حينًا ... تريدنا لتحسينا الأمرينا

يا قوم إن كانت الأنباء صادقة ... فالويل لى ولجمع الطاهرينا

أما أنا فإذا اصطفت كتائبنا ... أكون من بينهم رأس الموليـنا

بالعذر عنه رسول الله منبسط إذا احتسبت دماء الفاطمينا

وتشيع الطاهريين معقول مرجح لأنهم كانوا فرسًا يوافق هواهم هذا المذهب، ويصلح عندهم ذريعة لقلب الدولة وتجديد ملك فارس وقيام الدولة الطاهرية. فرثاء الشاعر رجلا من الشيعة - على هذا الاحتمال - أمر لا غبار عليه من هذه الوجهة ولا شبهة فيه على صدق الميل والجد فى العقيدة.

وإن أحق عقيدة أن يجد المرء فيها لعقيدة تجرئه إذا خاف، وتبسط له العذر والعزاء إذا سخط من صروف الحوادث، وتمهد له الأمل فى مقبل خير من الحاضر وأدنى منه إلى كشف الظلامات ورد الحقوق، وكل أولئك كان ابن الرومى واجده على أوفاه فى التشيع للعلويين أصحاب الأمامة المنتظرة فى عالم الغيب على العباسيين أصحاب الحاضر الممقوت المتمنى زواله، فلهذا كان متشيعًا فى الهوى متشيعًا فى الرجاء متشيعًا فى الرأى الذى وافق الهوى والرجاء، وكان "على مذهب غيره من الشعراء" وعلى مذهب غيره من سائر المتشيعين.

***

أما الاعتزال فابن الرومى لا يكتمه ولا يمارى فيه، بل يظهره إظهار معتز به حريص عليه، فمن قوله فى ابن حريث:

معتزلى مسر كفر يبدى ظهورًا لها بطون
أأرفض الاعتزال رأيًا كلا! لأنى به ضنين
لو صح عندى له اعتقاد ما دنت ربى بما يدين

يقول: إن ابن حريث هذا يبطن الكفر ويظهر الاعتزال وهو الإيمان الصحيح فى رأى المعتزلة، ثم يقول: أترانى إذن أرفض الاعتزال لأن ابن حريث يدعيه؟ فيجيب نفسه: كلا! لأنى أضن به، وأعلم أن عقيدة ابن حريث الباطنة غير الاعتزال، ولولا علمى بذلك ما دنت ربى بما يدين . .

وكان مذهبه فى الاعتزال مذهب القدرية الذين يقولون بالاختيار ونيزهون الله عن عقاب المجبر على ما يفعل: وذلك واضح من قوله يخاطب العباس بن القاشى ويناشده صلة المذهب:

إن لا يكن بيننا قربى قاصرة ... للدين يقطع فيها الوالد الولدا
مقالة "العدل والتوحيد" تجمعنا ... دون المضاهين من ثنى ومن جحدا
وبين مستطرفى غى مرافقة ... ترعى، فكيف اللذان استطر فأرشدا
كن عند أخلاقك الزهر التى جعلت ... عليك موقوفه مقصورة أبداً
ما عذر "معتزلى" موسر منعت ... كفاه معتزليًا مقتراً صفدا
أيزعم القدر المحتوم ثبطه؟ ... أن قال ذاك فقد حل الذى عقدا
أم ليس مستاهلا جدواه صاحبه؟ ... أنى: وما جار عن قصد ولا عندا
أم ليس يمكنه ما يرضيه له؟ ... يكفى أخا من أخ ميسور وجدا
لا غدر فيما يرينى الرأى أعلمه ... للمرء مثلك إلا يأتى السددا

فواضح من كلامه هذا أنه "معتزلى" وأنه من أهل "العدل والتوحيد" وهو الاسم الذى تسمى به القدرية لأنهم ينسبون العدل إلى الله فلا يقولون بعقوبة العبد على ذنب قضى له وسبق إليه، ولأ،هم يوحدون الله فيقولون أن القرآن من خلقه وليس قديمًا مضاهيًا له فى صفتى الوجود والقدم. وقد اختاروا لأنفسهم هذا الاسم ليردوا به على الذين سموهم "القدرية" ورووا فيهم الحديث "القدرية مجوس هذه الأمة" فهم يقولون ما نحن بالقدرية لأن الذين يعتقدون القدر أولى بأن ينسبوا إليه. إنما نحن من أهل العدل والتوحيد لأننا ننزه الله من الظلم وعن الشريك.

وواضح كذلك من كلامه أنه يعتقد حرية الإنسان فيما يأتى من خير وشر ويحتج على زمليه بهذه الحجة فيقول له لم لا تثيبنى؟ إن قلت إن القدر يمنعك فقد حللت ما اعتقدت من اختيار الإنسان فى أفعاله.

وإن قلت أنك لا تريد فقد ظلمت الصداقة وأخللت بالمروءة.

وله عدا هذا أبيات صريحة فى اعتقاد "الاختيار" وخلق الإنسان لأفعاله كقوله:

لولا صرف الاختيار لا عنقوا لهوى، كما اتسقت جمال قطار

وقوله:

أنى يكون كذا وأنت مخير متصرف فى النقض والأمرار

وقوله:

الخير مصنوع بصانعه فمتى صنعت الخير اعقبكا

والشر مفعول بفاعله فمتى فعلت الشر أعطبكا

إلا أنه كان يقول بالقدر فى تقسيم الأرزاق وأن:

الرزق آت بلا مطالبة سيان مدفوعه ومجتذبه

ويقول:

أما رأيت الفجاج واسعة والله حيا والرزق مضمونا

ولا تناقض عند القدرية فى هذا لأنهم يقولون بالاختيار فيما يعاقب عليه الإنسان ويثاب لا فيما يناله من الرزق وحظوظ الحياة. ومن العزاء لابن الرومى أن يكون الرزق مضمونًا مقدرًا لأنه أمان له من مخاوف الغد المجهول وراحة من اللقاء التبعة على نفسه فيما أصابه من الخذلان والتخلف.

أما القول بالطبيعتين فأوضح ما يكون فى قوله:

فينا وفيك طبيعة أرضية تهوى بنا أبدًا لشر قرار

هبطت بآدم قبلنا وبزوجه من جنة الفردوس أفضل دار

فتعوضنا الدنيا الدنية كاسمها من تلكم الجنات والأنهار

يئست لعمر الله تلك طبيعة ... حرمت أبانا قرب أكرم جار
واستأثرت ضعفى بنيه بعده ... فهموا بها أسرى بغير أسار
لكنها مأسورة مقسورة ... مقهورة السلطان فى الأحرار
فجسومهم من أجلها تهوى بهم ... ونفوسهم تسمو سمو النار
لولا منازعة الجسوم نفوسهم ... نفذوا بسورتها من الأقطار[1]
أو قصروا فتشاولوا بأكفهم ... قمر السماء وكل نجم سار

وكأن الفارسية هنا تسربت إلى أقوال المعتزلة كما تسربت إلى كثير من أفكار الثقافة العربية، فإن القول بالطبيعيين من أقدم ما عرف من ديانة الفرس قبل أديان بنى إسرائيل وقبل النصرانية والإسلام. فلما جاء التوحيد الإسلامى أبطل الثنية ولم يبطل النزاع بين الخير والشر والنور والظلام، فجاز للمسلم أن يؤمن بالطبيعيين على أن يؤمن بالوحدانية ولا يشرك الشر فى تدبير الوجود.

وإلى هنا تكلمنا من مذهبه ولم نتكلم عن "فطرته الدينية" أو عن قوة الإيمان فى نفسه.

والفرق بين الأمرين لا يحتاج إلى شرح طويل. فإن الناس قد يختلفون فى المذهب أبعد اختلاف ويتفقون فى "الفطرة الدينية" أقرب اتفاق، فربما رأيت ألف رجل يدينون بكل مذهب فى فجاج الأرض وهم على الرغم من ذلك أصحاب "فطرة دينية واحدة" مطبوعون على حماسة الدين أو مطبوعون على حب التقديس والعبادة، يتفقون فى هذه الفطرة، ويخرج كل منهم إلى معبده فإذا واحد منهم ذاهب إلى المسجد والثانى إلى الكنيسة والثالث إلى البيعة والرابع إلى بيت الأصنام، أو يتفقون على هذه الفطرة، ويخرج كل منهم إلى قتال الآخرين بتلك الغيرة القوية التى يقاتله بها أولئك الآخرون.

(١) أقطار السموات.

فالفطرة الدينية توجد فى أنصار كل مذهب وملة، أما المذاهب والملل فلا نهاية لها فى التعدد والافتراق.

وابن الرومى كان مفطوراً على التدين لأنه كان مفطوراً على التهيب والاعتماد على نصير، وهما منفذان خفيان من منافذ الإيمان والتصديق بالعناية الكبرى فى هذا الوجود. ومن ثم كان مؤمنًا بالله خوفًا من الشك، مقبلا على التسليم بسيطًا فى تسليمه بساطة من يهرب من القلق ويؤثر السكينة إلى شىء من الأشياء، وبلغ من بساطته أنه كان ينكر على الحكماء شكهم فى حفظ أجساد الأتقياء بعد الموت وحسبانه من فعل الدواء والحنوط، فقال لابن أبى ناظرة حين تذوق بعض الأجساد ليعلم ما فيها من عوامل البقاء.

يا ذائق الموتى ليعلم هل بقوا ... بعد التقادم منهم بدواء
بينت عن رعة وسدق أمانة ... لولا اتهامك خالق الأشياء
أحسبت أن الله ليس بقادر ... أن يجعل الأموات كالأحياء
وظننت ما شاهدت من آياته ... بلطيفة من حيلة الحكماء

ومات وهو يقول فى ساعاته الأخيرة:

إلا أن لقاء اللـ ... ـه هو دونه الهول

وما كانت الطيرة عنده إلا شعبه من ذلك "التهيب" الدينى الغريزى فيه. فهو يتفلسف ويرى الآراء فى الدين ولكن فى حدود من الشعور لا فى حدود من التفكير، ولهذا كان الفنان ولم يكن الفيلسوف.

وليس من "الاجتراء" أنه قال بالاختيار، ورأى له فى الدين رأيًا غير ما اصطلح عليه السواد. فإنه كان يحيل الذنب على الإنسان وينفى الظلم عن القدر فى العقاب والثواب ويتصور الله على أحسن ما يتصور المتفلسف مثله إلهه، فكأنما جاءه هذا الرأى من محاباة عالم الغيب لا من الاجتراء عليه، وإنما دفع به إلى رأى المعتزلة مخاوف الشكوك التى كانت تخامره فلا يستريح

حتى يسكن فيها إلى قرار وينتهى من التفكير فيها إلى بر الأمان، ولذلك كان يأوى إلى الأصدقاء يكاشفهم بما فى صدره ويستعين بهم على تفريج غمته.

ويدمج أسباب المودة بيننا ... مودتنا الأبرار من آل هاشم
وإخلاصنا التوحيد لله وحده ... وتذبيبنا عن دينه فى المقاوم
بمعرفة لا يقرع الشك بابها ... ولا طعن ذى طعن عليها بهاجم
وأعمالنا التفكير فى كل شبهة ... بها حجة تعيى دهاة التراجم
يبيت كلانا فى رضا الله ما حضا ... لحجته صدراً كثير الهماهم

بيد أن "الإيمان" شىء وأداء الفرائض الدينية شىء آخر، فقصارى الإيمان عنده أنه يؤمنه بقرب آل البيت وتنزيه ربه والاطمئنان إلى عدله ورحمته، ثم يدع له سبيله يلعب ويمرح كلما لذ له اللعب والمرح، ولا أهلا بالصيام إذا قطع عليه ما اشتهى من لذة وأرب:

فلا أهلا يمانع كل خطير ... وأهلا بالطعام والشراب

بل لا حرج عليه إذا قضى ليلة فى السرور أن يشبهها بليلة المعراج:

رفعتنا السمود فيها الفو ... ذ فكانت كلية المعراج

ذلكل أنه كان فى تقواه طوع الإحساس الحاضر كما كان فى كل حالة من حالاته. يلعب فلا يبالى أن يتماجن حيث لا يليق مجون. ويستحضر التقوى والخشوع فلا يباريه أحد من المتعبدين، ويخيل إليك أنك تستمع إلى متعبد عاش عمره فى الصوامع حين تستمع إليه يقول:

تتجافى جنوبهم ... عن وطئ المضاجع
كلهم بين خائف ... مستجير وطامع
تركوا لذة الكرى ... للعيون الهواجع

ورعـــوا أنجم الـدجى طالـعًــا بـعــد طـالع
لــو تـراهــم إذا هــم خــطروا بــالأصــــابــع
وإذا هــم تــأوهـــوا عنـد مـــر القـــوارع
وإذا باشـــروا الثـــرى بالخــــدود الضــــوارع
واستـــهلت عيـــونهم فـــائضـــات المدافع
ودعـــوا: "يا مـليكـنا يا جـــميل الصـنايع"
أعـف عـــنا ذنـوبــنـا للـوجــوه الخــــواشع
أعـف عـــنا ذنـوبــنـا للـعـــيــون الـدوامع
أنــت إن لـم يكـن لـنـا شـافع، خيــر شـافع"
فـــأجـــيبــوا إجــابة لم تـقع فى المســـامع
"ليس مـــا تصـنعــونه أوليـــائى بضـــائع"
"ابذلوا لـى نفـــوسكم أنــهـــــا فــى ودائــع

وله من طراز هذا الشعـر الخاشع كثـير لا تسمعـه من ابن الفارض ولا محيى الدين.

هجاؤه

أخرج القرن الثالث للهجرة شاعرين هجـائيين هما أشهر الهجائيين فى أدب العصور الإسـلامية عامـة، أحدهما ابن الرومى والآخر دعـبل الخزاعى هاجى الخلفاء والأمراء وهاجى الناس جميعًا والقائل:

إنى لأفتح عينى حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحدًا

وقد جمع المعرى بينهما فى بيت واحـد وضرب بهما المثل لهجاء الدهر لبنيه فقال:

لو أنصف الدهر هجا أهله كأنه الرومى أو دعبل

وليس للمؤرخ الحديث أن يصف اسمًا جديدًا إلى هذين الاسمين، فإن العصور التالية للقرن الثالث لم تخرج من يضارعهما فى قوة الهجاء والنفاذ فى هذه الصناعة، وكلاهما مع هذا نوع فذ فى الهجاء يظهر متى قرن بالآخر . . فدعبل كما قلنا فى غير هذا الكتاب:

"كان صاحب طبيعة من تلك الطبائع النابية النافرة التى تخرج على "المجتمع" وتثور به ولا تزال فى حرب معه لا مسالمة فيها ولا مهادنة إلى أن يواريها الموت فى ثراه، وكان غاضبًا أبدًا على الناس ينكر عرفهم ويشذ على إجماعهم ويهجو أفرادهم بأسمائهم، وهو إنما يهجو الناس جميعًا فى أشخاص أولئك الأفراد . . وكان يهيم على رأسه فى البلاد سنين عدة تنقطع فيها أخباره وتخفى آثارهم ثم يظهر حيث كان فجأة وقد أثرى وغنم ليبدد ما جمعه فى اللهو والقصف، ثم ينقلب إلى شأنه من الأباق والتطواف فى أرجاء الأرض، وربما لقى الشرارة وقطاع الطريق فى بعض رحلاته فيجالسهم ويؤاكلهم ويأمر غلاميه أن يغنينا لهم ويعرفهم فلا يمسونه بأذى ولا يذكرهم سوء، لأنهم أبناء نحلة ةواحدة يؤلف شملهم النفور من الناس ويوفق بينهم الشذوذ عما تواضعوا عليه من الآداب والدساتير. فهو قاطع طريق بفطرته التى ولد عليها وإن لم يحمل السيف ولم يخرج للفتك والغيلة، بل لقد قيل أنه قطع الطريق فى بعض أيامه فعلا "وإنه كان يكمن للناس بالليل فرصد يومًا صيرفيًا طمعًا بما معه ففتك به ولم يجد فى كمه إلا ثلاث رمانات فى خرقة فخرج هاربًا من الكوفة لاشتداد الطلب عليه" وما كان هجوه لو بحثت فى أسبابه إلا ضربًا من قطع الطريق على الناس اشتهاء فى أكثر الأحيان للذة الصيد والقنص ونزوة المطاردة والتخويف، لا طمعًا فى المال أو طلبًا للتراث. فما اتفق الناس على إمام إلا هجاه وألح فى هجائه وأن أحسن إليه وأجزل له العطاء، ولا ترك أميراً ولا وزيراً ولا واليًا إلا ناله بلسانه عرضًا أو قصداً ولو كان من أبناء قبيلته ومن خاصة المفضلين عليه".

" . . . أما ابن الرومى فلم يكن مطبوعًا على النفرة من الناس ولم يكن قاطع طريق على "المجتمع" فى عالم الأدب، ولكنه كان "فنانًا" بارعًا أوتى ملكة التصوير ولطف التخيل والتوليد وبراعة اللعب بالمعانى والأشكال، فإذا قصد شخصًا أو شيئًا بهجاء صوب إليه "مصورته" الواعية فإذا ذلكل الشخص أو ذلك الشيء صورة مهيأة فى الشعر تهجو نفسها بنفسها وتعرض للنظر مواطن النقص من صفحتها كما تنطبع الأشكال فى المرايا المعقوفة والمحدبة، فكل هجوه تصوير مستحضر لأشكاله أو لعب بالمعانى على حساب من يستشيره" .

هذا هو الفرق بين مذهبى هذين الشاعرين اللذين ظهرا فى قرن واحد وأخذا بطرفى الهجاء فى الآداب العربية.

ولك أن تقول من جهة أخرى أن الفرق بينهما كان فرقًا بين المذهب البدوى والمذهب الحضرى فى الهجاء. فقد كان دعبل بدويًا نافرًا بفطرته وكان ابن الرومى حضريًا أنيسًا فطرته، فإذا تبرم ابن الرومى بالناس فإنما يتبرم بهم تبرم من يألفهم ويأنس إليهم ويعانى ما يعانى من عشرتهم ثم يسخط عليهم لأنه مقيد بهم لا يستطيع الفكاك منهم. فسخطه أساسه المودة والألفة وليس أساسه القطيعة والنفرة، كما كن السخط فى نفس صاحبه دعبل الخارج على الجماعة القاطع الطريق.

ولهذا الفرق أثره فى موضوع المثالب التى يلقيها كل منهما على مهجويه، فدعبل يسلب المهجو جميع الفضائل التى تعتز بها النفس الصارمة البدوية، يسلبه النخوة والكرم والبأس وطيب النحيزة. ويجعله رجلا يسمع البدوى صفاته فيقول أنه حثير مرذول.

وابن الرومى يسلب مهجوه الفطنة والكياسة والعلم ويلصق به كل عيوب الحضارة التى يجمعها التبذل والتهالك على اللذات، فإذا حذفت من

هجوه كل ما أوجبته الحضارة والخلاعة الفاشسة فى تلك الحضارة فقد حذفت منه شر ما فيه ولم يبق منه إلا ما هو من قبيل الفكاهة والتصوير.

والبدوى يخاف الذم والحضرى قلما يخافه.

فما يرتاح للمدح ولا يرتاع للشتم

كما قال الرومى فى بعض مهجويه. فالأفحاش وليد الحضارة والغلو فى الأفحاش وليد التهتك فى الحضارة، ومتى غلا الشاعر فى القذف بأدناس التبذل والخلاعة فهناك عيبان محققان أحدهما، لا شك، عيب البيئة التى أشاعت تلك الأدناس أو جعلت الذم بها ذمًا هينًا على الأسماع فلابد فيه للشاعر من المبالغة والإغراق.

والثانى تبحث عنه فى قائل الهجو ومدمنه، فإنه لولا عيب فيه لما اضطر إلى الهجاء ولا أدمنه وأفرط فيه.

فما هوعيب ابن الرومى - أو ما هى عيوبه - التيأولعته بالهجاء والأفحاش وصيرته عنوانًا لزمانه فى السفاهة والبذاء؟ يبدو لنا أن عيبه الأول هو الشهوانية والتهالك على اللذات. فالشهوانية هى التى هونت عليه الأقذاع وسوغت له خوض الفضائح فأوغل فيها غير مستكره ولا متحرج. ثم أعانها الضعف وهوعيبه الغالب عليه الذى تبدأ منه وترجع إليه جميع عيوبه.

ففى هجائه صفة ذميمة يشمئز منها القارئ جدًا فى كثير من الأحيان، ولكنها صفة الضعف والخفة وليست صفة الخبيث والرداءة، وقل فيه وفى هجائه ما شئت من لوم وتهجين وتأفف ولكنك متى قلت فيه كل ما هو أهله وأقبلت ترد هجاءه إلى بواعثه لم تجد ثمة شراً دخيلا ولم يخطئ قط أن تجد الحرج والاضطرار وتشعر بأن قائل هذا الهجاء رجل متألم يدفع الألم عن نفسه وليس برجل السوء الذى يعنيه أن يوقع الألم بغيره ويعتد إيلام الناس غرضًا له مقصوداً لذاته.

وهو مع اشتهاره بالهجاء أسلم عن غيره حالا فيه وأكثر عذراً من غير المشهورين به. أسلم من البحترى مثلا كما قال المرزبانى فى الموشح:

"وكثير من أهل الآداب ينكر خبث لسان على بن العباس الرومى ويطعن عليه بكثرة هجاءه حتى جعلوه فى ذلك أوحد لا نظير له. ويضربون عن إضافة البحترى إليه وإلحاقه به مع إحسان ابن الرومى فى إساءته وقصور البحترى عن مداه، وأنه لم يبلغه فى دقة معانيه. لأن البحترى قد هجا نحواً من أربعين رئيسًا ممن مدحه، منهم خليفتان: وهما المنتصر والمستعين، وساق بعدهما الوزراء ورؤساء القواد ومن جرى مجراهم من جلة الكتاب والعمال ووجوه القضاة والكبراء بعد أن مدحهم وأخذ جوازئهم، وحاله فى ذلك تنبئ عن سوء العهد وخبث الطريقة. ومما قبح فيه أيضًا وعدل عن طريق الشعراء المحمودة أنى وجدته قد نقل نحواً من عشرين قصيدة من مدائحه لجماعة توفر حظه منهم عليها إلى مدح غيرهم وأمات أسماء من مدحه أولا، مع سعة ذرعه بقوله الشعر واقتداره على التوسع فيه.

"وقال أحمد بن أبى طاهر: ما رأيت أقل وفاء من البحترى ولا أسقط، رأيته قائمًا ينشد أحمد بن الخصيب مدحًا له فيه فحلف ليجلسن. ثم وصله واسترضى له المنتصر وكان غضبان عليه. ثم واصل له مديحًا إليه وأخذ له منه مالا فدفعه إليه، ثم نكب المستعين أحمد بن الخصيب بعد فعله هذا بشهور فلعهدى قائمًا ينشده:

لابن الخصيب الويل كيف انبرى ... بإفكه المردى وإبطاله

يا ناصر الدين انتصر موشكًا ... من كائد الدين ومفتاله

فهو حلال الدم والمال أن ... نظرت فى ظاهر أحواله

ثم قال ابن أبى طاهر: كان ابن العلجة فقيهًا يفتى الخلفاء فى قتل الناس. نزحه الله. ثم ختم القصيدة بقوله:

"والرأى كل الرأى فى قتله بالسيف واستصفاء أمواله"

فالبحترى كان فى غنى عن هذا ومندوحة واسعة، ولكنك قل أن تقرأ لابن الرومى هجاء تقول أنه كان من الوجهة النفسية فى غنى عنه.

على أن لصاحبنا فنًا واحدًا من الهجاء لا ترتاب فى أنه كان يختاره ويكثر منه ولو لم تحمله الحاجة وتلجئه النقمة إليه، ونعنى به فن التصوير الهزلى والعبث بالأشكال المضحكة والمناظر الفكاهية والمشابهات الدقيقة فهو مطبوع على هذا كما يطبع المصور على نقل ما يراه وأعطاه التصوير حقه من الإتقان والاختراع، وما نراه كان يقلع عنه فى شعره ولو بطلت ضروراته وحسنت مع الناس علاقاته . . لكن هذا الفن أدخل فى التصوير منه فى الهجاء، وهو حسنة وليس بسيئة وقدرة تطلب وليس بخلة تنبذ. وأنت لا يغضبك أن ترى ابنك الذى تهذبه وتهديه ماهرًا فيه خيرًا بمغامره وخوافيه، وإن كان يغضبك أن تراه يشتم المشتوم، ويهين المهين، ويهجو من يستهدف عرضه للهجاء لأنك إذا منعته أن يفطن إلى الصور الهزلية وأن يفتن فى إدراك معانيها وتمثيل مشابهاتها منعت ملكة فيه أن تنمو وأبيت على حاسة صادقة فيه أن تصدقه وتفقه ما تقع عليه، أما إذا منعت الهجاء وبواعثه فإنك تمنع خلقًا يستغنى عنه وهيلا لابد له من التقويم . .

ذللك هو فن ابن الرومى الذى لا عذر له منه ولا موجب للاعتذار، فأما ما عدا ذلك من هجائه فهو مسوق فيه لا سائق ومدافع لا مهاجم ومستثار عن عند فى بعض الأحيان لا مستثير. وإنك لتقرأ له قوله:

ما استب قط اثنان إلا غلبًا شرهما نفسًا وأمًا وأبًا

فلا تصدق أن قائله هو ابن الرومى هجاء اللغة العربية وقاذف المهجوين بكل نقيضة. لكن الواقع هو هذا، والواقع كذلك أنه كان يسكن إلى رشده أحيانًا فيسأم الهجاء ويعافه ويود الخلاص منه حتى ولو كان مهجوًا معدوًا عليه، ويتعزم التوبة عن الهجاء مقسمًا:

آليت لا أهجو طوا ل الدهر إلا من هجائى
لا، بل سأطرح الهجا ء وإن رمانى من رمانى
آمن الخلائق كلهم فليأخذوا منى أمانى
حلمى أمز على من غضبى إذا غضبى عرانى
أولى بجهلى بعد ما مكنت حلمى من عنانى

وهذا أشبه بابن الرومى لأنه فى صميمه خلق مسالمًا سهلا ولم يخلق شريرً مطويًا على الشكس والعداوة. بل هو لو كان شريرًا لما اضطر إلى كل هذا الهجاء، أو هو لو كان أكثر شرًا لكان أقل هجاء، لأنه كان يأمن جانب العدوان فلا يقابله بمثله. وما كان الهجاء عنده كما قلنا إلا سلاح دفاع لا سلاح هجوم: وما كان هجاؤه يشف عن الكيد والنكاية وما شابهها من ضروب الشر المستقر فى الغريزة كما كان يشف عن الحرج والتبرم والشعور بالظلم الذى لا طاقة له باحتماله ولا باتقائه. وكثير من الأشرار الذين يقتلون ويعتدون على الأرض يقضون الحياة دون أن تسمع منهم كلمة ذم فى إنسان، وكثير من الناس يذمون ويستخطون وهم مطبوعون على الخير ولاعطف وحسن المودة، بل هم قد يذمون ويسخطون لأنهم على ذلك مطبوعون.

ومن مقرأ مراثى ابن الرومى فى أولاده وأمه وأخيه وزوجته وخالته وبعض أصدقائه علم منها أنها مراثى رجل مفطور على الحنان ورعاية الرحم والأنس بالأصدقاء والإخوان. فمراثيه هى التى تدل عليه حق الدلالة المنصفة وليست مدائحه التى كان يمليها الطمع والرغبة أو أهاجيه التى كان يمليها الغيظ وقلة الصبر على خلائق الناس. ففى هذه المراثى تظهر لنا طبيعة الرجل لا تشوبها المطامع والضرورات، ونرى فيها الولدالبار والأخ الشقيق والوالد الرحيم والزوج الودود والقريب الرؤوم والصديق المحزون. ولا يكون الرجل كذلك ثم يكون مع ذلك شريرًا مغلق الفؤاد مطبوعًا على الكيد والإيذاء.

وإذا اختلف القولان بينه وبين أبناء عصره فأحجى بنا أن نصدق كلامه هو فى أبناء عصره قبل أن نصدق كلامهم فيه، لأنهم كانوا يستبيحون إيذاءه ويستهلون الكذب عليه لغرابة أطواره وتعود الناس أن يصدقوا كل ما يرمى به غريب الأطوار من التهم والأعاجيب، فى حين أنه كان يتحاشى عن تلك التهم ويغفر الإساءة بعد الإساءة مخافة من كثرة الشكاية وعلمًا منه بقلة الإنصاف:

أتانى مقال من أخ فاغتفرته ... وإن كان فيما دونه وجه معتب
وذكرت نفسى منه عند امتعاضها ... محاسن تعفو الذنب عن كل ذنب
ومثلى رأى الحسنى بعين جلية ... وأغضى عن العوراء غير مؤنب
فيا هاربًا من سخطنا متنصلا ... هربت إلى أنجى مفر ومهرب
فعذرك مبسوط لدينا مقدم ... وودك مقبول بأهل ومرحب
ولو بلغتنى عنك أذنى أقمتها ... لدى مقام الكاشح المتكذب
ولست بتقليب اللسان مصارمًا ... خليلى، إذا ما القلب لم يتقلب

فالرجل لم يكن شريرًا ولا رديء النفس ولا سريعًا إلى النقمة، فلماذا إذن كثر هجاؤه واشتد وقوعه فى أعراض مهجويه؟ نظن أنه كان كذلك لأنه كان قليل الحيلة طيب السريرة خاليًا من الكيد والمراوغة والدسيسة وما شابه هذه الخلائق من أدوات العيش فى مثل عصره. فكان مستغرقًا فى فنه بحسب أن الشعراء والعلم والثقافة وحدها كفيلة بنجاحه وارتقائه إلى مراتب الوزارة والرئاسة، لأنه كان فى زمن يتولى فيه الوزراء والأدباء والكتاب والرواة ويجمعون فى مناصبهم ألوف الألوف ويحظون بالزلفى عند الأمراء والخلفاء، وقد كان هو شاعرًا كاتبًا وكان خطيبًا واسع الرواية مشاركًا فى المنطق والفلك واللغة وكل ما تدور عليه ثقافة زمانه، أو كما قال المسعودى كان الشعر أقل أدواته . . وكان الشعر وحده كافيًا لجمع المال وبلوغ الآمال، فماذا بعد أن

يعرف الناس أنه شاعر وأنه كـاتب وأنه راوية مطلع على الفلسفة والنجوم إلا أن تجيـئه الوزارة ساعـية غليـه تخطب وده كما جـاءت إلى أناس كثـيرين لا يعلمـون علمـه ولا يبلغـون فى البـلاغة مكانه؟! ألـم يصل ابن الزيات إلى الوزارة بكلمة واحدة فسرها للمعتـصم وفصل له تفسيرها وهى كلمة "الكلأ" التى يعرفها عامة الأدباء؟ بلى! وابن الرومى كان يعرف من غريب اللغة ما لم يكن يعرفه شعراء عصره ولا أدباؤه. فما أولاه إذن بالوزارة وما أظلم الدنيا إن هى ضننت عليه بحقه من المناصب والثراء!!

فـإذا لم تكن الوزارة فـهل أقل من الكتـابة أو العمـالة لبـعض الوزراء والكتاب المبرزين؟ فإذا لم يكن هذا ولا ذاك فهل غبن أصعب على النفس من هذا الغبن؟ وهل تقصير من الزمان آلم من هذا التقصير؟

ونبوءة أبيه ورجـاؤه فى مستقبله وقـوله له "أنت للشرف" أيذهب عذا كله هباء لا يقبض منه اليدين على شىء؟ تلك النبوءات التى تنطبع على أفئدة الصغـار بمثل النار ولا تزال غرارة الطفولة وأحـلام الصبا تزخـرفها وتوشيـها وتعمق فى الضمير أغوارها أيأتى الشـباب وهى محو لغو مطموس لا يبين أو لا يبين منه إلا ما نيقلب إلى الأضداد وتترجمه الأيام بالسقم والفقر والكساد؟ وكيف يمحى إلا وقد محى القلب الذى طبـعت فيه؟ وكيف ينعكس معناه إلا وقـد انعكس فى القلب كل قـائم والتوى فـيه كـل قويم؟ ذلك صـعب على النفوس وليس بالسهل إلا على من يلهو به وهو بعيد.

وهكذا كان ابن الرومى يسأل نفسه مرة بعد مرة ويومًا بعد يوم:

مـالى أسل من الـقـراب وأغـمـد لم لا أجـرد والسـيـوف تجـرد
لم لا أجـرب فى الضرائب مـرة؟ يا للـرجـال! وأننى لمـهند . . . !

ولا يدرى كيف يجيب نفسه على سؤاله، لأنه لم يكن يدرى أن فضائله كلها لا تساوى فتيلا بغير الحيلة والعلم بأساليب الدخول بين الناس وأن الحيلة

وحدها قد تغنى عن فضائله جميعًا ولو كان صاحبهما لا ينظم شعرًا ولا ينظر فى كتب الفلسفة والرواية والنجوم . .

حسن! إذن ندع الوزارة والولاية والعمالة بعد يأس مضيض يسهل علينا هنا أن نسطره فى كلمة عابرة ولكنه لا يسهل على من يعالجه ويشفى بمحنته فى كل ساعة من ساعات حياته، ندع الوزارة والولاية والعمالة ونقتنع بالمثوبة من الوزراء والولاة والعمال إن كانوا يثبون المادحين. فهل تراهم يفعلون؟

لا! لأن الحيلة لازمة فى استدرار الجوائز والمثوبات لزومها فى كل غرض من أغراض المعاش، ولا سيما فى ذلك الزمان الذى شاعت فيه الفتن والسعايات، وما كانت تنقضى منه سنة واحدة بغير مكيدة خبيثة تودى بحياة خليفة أو أمير أو وزير. وربما كانت مصانعه الحجاب والتماس مواقع الهوى من نفوس اللحاشية والندمان واللعب بمغامز النفوس الخفية وإضحاك هؤلاء وهؤلاء أجدى على المشاعر فى هذا الباب من بلاغة شعره وغزارة علمه، وربما كان الوزير لا يثيب الشاعر إلا ليستصلحه كما كانوا يقولون فى لغة ذلك الزمان، أى ليتخذه نصيرًا له عسى أن ينفعه يومًا فى مجالس الخلفاء والأمراء بكلمة يقضى بها مأربًا أو يكتب عدوًا أو بحيلة يقرب بها بعيدًا أو يبعد قريبًا. وأين يذهب ابن الرومى فى هذا المجال؟ وماذا يرجو الممدوحون من تقريبه وهو رجل كما كانوا يقولون ممرور موسوس أدبه أكبر من عقله ولسانه أطول من صبره؟ لقد كان صاحبنا صفرًا من هذه البضاعة فلا جرم نراه يشكو تكبر الحجاب ودسائس الندماء والأصحاب ويعطى القليل حين يجزل عطاء الآخرين أو يثاب مرة ويحرم مرات، فقد بلغ من وكس حاله فى هذا أنه كان يستجدى الكساء فيمطلونه ويعود إلى الاستجداء فيعودون إلى المطل حتى يقول:

جعلت فداك لم أسأ ... لك ذاك الثواب للكفن

سألتكه لا لبسه ... ورحى بعد فى البدن

وبلغ من وكس حاله أن الممدوحين كانوا يقبلون شعره ولا يثيبونه فإذا ألح فى طلب المثوبة قالوا خذ شعرك فامدح به غيرنا كما فعل ابن المدبر حين قال فيه:

رددت على مدحى بعد مطل وقد دنست ملبسه الجديدا؟
وقلت أمدح به من شئت غيرى! ومن ذا يقبل المدح الرديدا؟
ولا سيما وقد أعقبت فيه مخازيك اللواتى لن تبيدا
وما للحى فى أكفان ميت لبوس بعد ما ملئت صديدا

وكان يصنع القصيدة ويتبعها خمس قصائد أو ستًا ليحصل على جائزتها فلا يحصل بعد الجهد على شيء، ويعجب لذلك ويأخذه الشك فى شعره فيقول:

عجبت لقوم يقبلون مدائحى وينسون تثويبى، وفى ذاك معجب
أشعرى سفساف؟ فلم يجتبونه؟ وأن لا تكن هذى فلم لا أثوب

ولعله كان يتهم شعره أحيانًا فيقول:

الشعر كالعيش فيه مع الشبيه شبيب
فليصفح الناس عنه فطعنهم فيه غيب

أو يعتذر بالفاقة من السخف:

لا تلحنى فى المنطق السخيف فإنى فى حالة اللهيف
وأحوج الناس إلى رغيف

أو يقول:

قولا لمن عاب شعر مادحه أما ترى كيف ركب الشجر؟
ركب فيه اللحاء والخشب اليا بس والشوك بينه الثمر

وكان أولى بأن يهذب ما يخـ ـلق رب الأرباب لا البشر

ثم يعود إلى اعتداده بكلامه فيلقى الذنب على الناس لجهلهم بمعانى الكلام:

ما خمدت نارى ولكنها ألفت قلوبنا نارها خامدة

أو يقول:

ما بلغت بى الخطوب رتبة من تفهم عنه الكلاب والقردة

وما أنا المنطق البهائم والطـ ـير سليمان قاهر المردة

أو يقول أنهم بهائم لا يفهمون إلا البهائم:

بحقهم أن باعدونى وقربوا سواى وتقريب المباعد أوجب

خفافيش أعشاها نهار بضونه ولازمها قطع من الليل غيهب

بهائم لا تصغى إلى شدو معبد وأما على جافى الغنائى فتطرب

ويخطر له حينًا أن الأمراء يحسدون شعره لأنهم يقرضون الشعرر فينفسون الجيد منه على الشعراء، ولا يبعد أن يكون ذلك صحيحًا كما قال:

قد بلينا فى دهرنا بملوك أدباء عملتهم شعراء

أن أجدنا فى مدحهم حسدونا فحرمنا منهم ثواب الثناء

أو أسأنا فى مدحهم أنبونا وهجوا شعرنا أشد هجاء

قد أقاموا نفوسهم لذوى المد ح مقام الأنداد والنظراء

وكان من هؤلاء محمد بن عبدالله الذى قال فيه:

أخالك إذ جودت فيك مدائحى منعت ثوابى حاسدًا لى على شعرى

أتحدنى تجويد ريط نسجته لتلبسه؟ يا للعجيب من الأمر؟

تذكـــر هداك الـله أنى مـــادح وأنك ممدوح فـلا تعـد بى قـدرى
ينافس فى الشـعـر النظيـر نظيـره وجل ملوك الناس عن ذلك النجـر

فإذا لج به الغيظ واشتد عليه بلاء الحرمان من العمل والحرمان من المثوبة صرخ متعجبًا:

أذو آلة؟ فاستخدمونى لآلتى بقوتى، وإلا فارزقونى مع الزمنى

أى أرزقونى مع العـجزة والسقماء، وهذه نـهاية البؤس والخيبـة ونهاية الحيرة التى لا يهتدى فيـها المسكين إلى سبب مريح، فلم يلق له من عزاء إلا أن يوقن أن الدنيا هكذا طبعت على ظلم العارفين ومحاباة الأغنياء

رأيت الـدهر يرفـع كل وغـــد ويخـفض كل ذى رنة شـريـفـة
كـذلك البـحـر يرسب فـيـه در ولا تنفك تطـفـو فـيـه جـيـفـة

وكرر هذا المعنى فى معارض شتى على قـواف مختلفة، لأنه سكن إليه ووجد فيه عزاءه ولو إلى حين.

وينبغى أن نذكر هنا شيـئًا لابد من ذكره فى هذا المقام لأنه لازم لإدراك حقيقـة الغضب الذى كان يستولى على نفس الشـاعر المحروم إذا أجاد المديح ولم يظفر بالعطاء، فـقد كان حق الشاعـر فى العطاء معترفًا به يـقبله الأمراء والوزراء ويقره العـرف وتجرى عليه القدوة. فنحن لا نعـرف اليوم ذلك الحق للشـاعر ولا نسـتطيع لهـذا أن ندرك غضـبه وأسـفـه إذا حرم وتوالى عليـه الحرمان، أما فى عهد ابن الرومى فغضبه من المنع وأسفه على فوات الربح من هذه المقاصـد أمر لا غـرابة فيـه ولا اعتراض عليـه، فالحكم عليـه إنما يكون بمقياس أيامه ولا بمقياس أيامنا التى لا يجب فيها البذل على ممدوح ولا يجوز فيها الهجاء لشاعر محروم.

ومما ضاعف الاستخفـاف بابن الرومى أنه كان متطيراً غريب الأطوار لا

يأخذه الناس مأخذ الجد ولا يزال المعربون منهم يعتمدونه بالعبث ويتماجنون عليه لشدة فرقه وانزعاجه من القال السيء.

يضحك من كل ما بكيت له　　　كأن لذاته بآلامي

وكان بعضهم يصحبه بقرع بابه، فإذا سأله من الطارق؟ قال مرة بن حنظلة! فيمكث فى بيته لا يريم عنه سحابة يومه! وكانوا يسوقون إليه رجلا أحدب كريه الرؤية يقابله بوجهه إذا خرج من منزله فيرتد على عقبيه! وكانوا يجورون عليه بالعبث فيتوعد فلا يحفلون فيهجو ولكن بعد مصابرة وأعتاب. وكم قال لابن عروس:

يا ليت شعرى وليت شعرك إن قلـ　　　ـت وقلنا واستحكم القذع
وما ينفع الصارم اللسان إذا　　　عودر يومًا وعرضه قطع
فارجع وبقيا أخيك باقية　　　وأندم وفى الحلم فسحة تتسع

أو كما قال لبنى السمرى:

يا بنى السمرى لا تجشمونى　　　ان تثير القصيد كل دفين
قد تجاوزت ما تجاوزت عنكم　　　وتغاضت على قذاكم جفونى
لا يغرنكم بجهلى حلمى　　　وأرعوائى إلى حياتى ودينى
إن لين المهز فى السيف أمضى　　　بغراريه فى صميم الشئون

أو كما قال لغيرهم ولغيرهم من العابثين والماطلين الذين كانوا يضحكون مما يبكيه ويتفكهون بما يحز فى قلبه ويدميه. فماذا أفاده العتاب وماذا دفعت عنه الشكاية! لا شيء! لأن الأعراض هانت على أصحابها فى ذلك العصر فلا يبالون المذمة إلا أن يكون فيها معنى الاجتراء على الجاه والقوة، وهم أحرى الا يبالوها من شاعر كابن الرومى ليس أسهل عليهم من أن يقولوا عنه أنه هذيان ممرور، فيضيق ذرعًا بهم ويهجو كالمدفوع إلى غير ما يحب، ويظهر ذلك منه فى بعض القصائد كما يظهر من قوله:

لا يغضبن لعمرو من له خطر فليس يرضى بظلمى من له خطر

كأنه يقول: لقد صبرت على عمرو فرضى الناس بظلمه إياى فإذا هجوته أنا الآن فما يحق لذى خطر أن يغضب له وهو منصف بينى وبينه.

وقد يعترف بالوسواس على نفسه ولكنه يرده إلى سوء حظه وإجحاف الأيام به كما قال حين رماه الناشئ بالوسواس:

أن أو سوس فحقيق يسعد القرد وانحس!
أصبح الناشئ ممن يتغنى وهو أخرس
نفقا عند أناس تعسوا والدهر اتمس
له على الدنيا وقل ما شئت وأظلم وتغطرس
لم يقدس منك شيء ولك الجد المقدس
كيف لا يشتد وسوا سى وإشعارك تدرس
وضياء الشمس لا يقبـ ـس والظلماء تقبس

فإذا عبث به العابثون وتحدثوا بنحسه لم يسره ذاك وحق له إلا يسر به وقال مناجزًا:

زعمت بأننى نحس وأنى مجيبك معلنًا لا أتقيكا

وانطلق يصخب ويثلب وهو فى رأيه معذور فى ذلك الجرم الذى جنوه عليه قبل أن يجنيه عليهم، ومعذور حتى من الحسد الذى كان لا يدأريه ولا ينكره ولكن يقول فى التماس المعذرة له:

لا تلومن حاسدًا، ألم النفـ ـس من النحس يا أخى شديد

وزد على ذلك فجائعه فى بنيه وأحبابه واحدًا بعد واحد وهو أحوج ما يكون إلى معونتهم وعطفهم بين قوم كأنه غريب فيهم لا يفهمهم ولا

يفهمونه، وزد عليه طمع الناس فيه حتى كانت تسلبه ملكه الزهيد امرأة كما جاء فى بعض شعره. ويغصبه منزله الذى يسكنه تاجر يستهين به وبما عسى أن يصنع.

وراغمنى فيما أتى من ظلامتى وقال لى أجهد فى جهد احتيالكا

فما هو إلا نسجك الشعر سادراً وما الشعر إلا ضلة من ضلالكا

لهذا وأمثاله كثرت أهاجى ابن الرومى واشتد إقذاعه وكان الذين يمدحهم بالأمس هم الذين يثلبهم بعد ذاك، يكاد لا يفصل المدح عن القدح فاصل أو يكاد يكون المدح والقدح متواليين فى صفحات الديوان، لأن الديوان مرتب على حسب الحروف لا على حسب التواريخ والموضوعات ولو أننا نصبنا ميزان العدل لكان ابن الرومى ملومًا على المدح أضعاف لومه على الهجاء. فقد كان يكذب حين يمدح ويتوسل ولم يكن يكذب حين يهجو وينتقم، وراجع ترجمة المهجوين فى قصائدهم تجدهم كلهم أو أكثرهم لصوصًا لا ينقضى على أحدهم فى المنصب أشهر أو سنوات حتى يعمر بيته بالمنهوب المسلوب من أرزاق الرعية الضعفاء، ثم لا تنقضى فترة أخرى حتى يسلط عليه لصوص أكبر منه فينكبونه ويستصفون أمواله كأنهم تغفلوا عنه ريثما يجمع لهم تلك الأموال، وإن فى كتب التاريخ لسوءات لهم غير هذه وآثامًا جسامًا لا يقال فيها أنها تخرص شاعر مغبون أو افتراء خصم متهم بالأقاويل، فكان الصدق عذرًا للثالب الصادق فعذر ابن الرومى فى التشهير والتجريح أوجه من عذره فى الإطراء والمديح.

وقد اشتهر بالهجاء وأصبح له سلاحًا لازمًا وقدرة معروفة بين شعراء عصره فراح يلوح به كما يلوح المهدد بسلاحه ويعجب به كما يعجب الفنان بعلمه. ولو عوفى فى نفسه ورزقه لما بقى له من الهجاء إلا ناحية هذه الفنية وألاعيبه الصبيانية. فإنه على كل حال لم يحتقب قط من أدواته النية الخبيثة والطبع الشرير، أو هو على حد قوله:

لو أروض الشيطان أذعن كالكـ ـلب، أو العود عضه الكلوب[1]

ولما ذاك أنني الرجل الشـ ـير مني الخنا ومني الوثوب

بل لدى الإنصاف يشفعه الإحـ ـسان ما قارب الألد الشغوب

ونعود فنقول: لو كان الرجل أكثر شرًا لكان الناس أكثر اتقاء له واجتنابًا لكيده، فقلت دواعيه إلى سوء المقال وأعفى أعراضهم وأعفى لسانه فأراح واستراح.

هو وشعراء عصره:

عاصر ابن الرومى فى بيئته كثير من الشعراء أشهرهم فى عالم الشعر والحسين بن الضحاك ودعبل الخزاعى والبحترى وعلى بن الجهم وابن المعتز وأبو عثمان الناجم.

وليس لهؤلاء ولا لغيرهم ممن عاصروه وعرفوه - أو لم يعرفوه - أثر يذكر فى تكوينه غير اثنين فيما نظن، هما الحسين بن الضحاك ودعبل الخزاعى.

فقد كان ابن الرومى معجبًا بالحسين يروى شعره ويستلمح أخباره ويذكرها لأصحابه، وكان ابن الرومى يافعًا يحضر مجالس الأدب ويتلقى دروسه والحسين فى أوج سهرته يتناشد أشعاره أدباء الكوفة وبغداد ومدن العراق. حدث محمد بن الفضل الأهوازى قال: "سمعت على بن العباس الرومى يقول: حسين بن الضحاك أغزل الناس وأظرفهم، فقلت حين يقول ماذا؟ فقال حين يقول:

يا مستعير سوالف الخشف أسمع لحلفة صادق الحلف

إن لم أصح ويلى ويا حربى من وجنتيك وفترة الظرف

(١) العود الجمل المسن والكلوب المهمار.

فجحدت ربى فضل نعمته وعبدته أبداً على حرف

هكذا جاء فى كتاب الأغانى - وجاء فيه أيضًا عن ابن الرومى أنه قال:

أنشدنا أبو العباس ثعلب قال أنشدونى حماد بن المبارك صاحب حسين بن الضحاك قال أنشدونى حسين لنفسه:

لا وحسبيك لا أصا فح بالدموع مدمعا
من بكى شجوه استرا ح وإن كان موجعا
كبدى منم هواك أسقـ ـم من أن تقطعا
لم تدع سورة الضنى فى للسقم موضعا

قال ابن الرومى: ثم قال لنا ثعلب: ما بقى من يحسن أن يقول مثل هذا.

وروى عنه كتاب الأغانى روايات أخرى من هذا القبيل تدل كلها على الإعجاب والاستملاح، ومثل ابن الرومى يعجب بشعر الحسين الأنيق المطبوع ولكنه لا يتمزج بطريقته ولا يتزيى بزيه، لأن طريقة الأناقة والصفل غير طريقة الإمعان والنفاذ التى طبع عليها ابن الرومى. فأنت تلمح أثر هذا الإعجاب فى أبيات من شعر ابن الرومى كقوله:

يا وجنتيه اللتين من وهج فى صدغيه اللذين من دعج

فنعلم أنه نظم هذا البيت وهو يذكر صيحة ابن الضحاك من "وجنتى صاحبه وفترة طرفه"

أو كقوله:

عينى شحا ولا تسحا جل مصابى عن البكاء
تركما الداء متسكنًا أصدق عن صحة الوفاء

فنعلم أنه نظمه وهو يذكر الأبيات التى روى فى أولها لابن الضحاك:

لا وحـــبـــيـــك لا أصـــا   فح بـالدمـع مـــدمـــعـــا
من بـكى شـــجـــوه أســـرا   ح وإن كـــان مـــوجـــعـــا

وابن الضحاك يقول:

وكـأنما نصب كـأســه قـمـر   يـكرع فـى بـعض أنجـم الـفلـك

وابن الرومى يقول:

فكـأنما وكـــان شـــاربهـــا   قـمـــر يقـبل عـارض الـشـمس

فهو كان معـجبًا بطرائف ابن الضحاك ملتفتًـا إليها ولكنه لم يخرج عن طريقته التى طبع عليها ولم يزد فى إعجابه على أن يقتبس منه بعض الخطرات الرشيقة، وهو شىء غير اقتباس الطريقة والتشابه فى السليقة.

وقد مات الحسين بن الضحاك وابن الرومى فى التاسعة والعشرين، ولم نر فى تاريخه ولا فى تاريـخ الحسين ما يشـير إلى تلاقيـهما فى بغـداد حيث عـاش ابن الرومى معظم حـيـاته، أو فى غيـر بغـداد حيث كـان يرحل ابن الضحاك.

أما دعبل فابن الرومى عـارضه فى موضعين، أحدهما القـصيدة الطائية نظمـها دعبل حـين اتهم "خالدًا" بسـرقة دبكة وإطعـامه لضـيوفـه وقال فى مطلعها:

أســر المؤذن خـــالد وضـــوفـــه   أسـر الـكمى هفـا خـــلال الماقط
بعـــثـــوا إليـــه بنيـــهم وبنـاتهم   مـــا بين ناتقـــة وآخـــر ســـامط
يتنازعـــون كـأنـهم قـــد أوثقـــوا   خـــاقـات أو همــوا كـتـائب ناهط
أكلوه فـــانتـــزعت به أسنـانهم   وتهـشـــمت أقـفـاؤهم بـالحـائط

فزاد ابن الرومى فيها وأطالها وبلغ بها نيفًا وستين بيتًا وغير بعض ألفاظها، فمما قال فى معارضته وتمثل فيه كل مزاجه وملاحظاته:

طبخوه ثم أتوا به قد أبرمت ... أوتاره لنادف ومرابط

متجملا لدجاجه متجلدًا ... كتجلد المجلود بين ربائط

ولقد رمته يوم ذلك قدرهم ... بغطائط من غليه وغطامط

حملوا عليه كل ماء عندهم ... وفرات كوفتهم ودجلة واسط

وأها لذاك الديك بين مساقط ... منه عهدنا وبين ملاقط

قوام أسحار مؤذن حارة ... "وصال" زوجات كمى مآقط

ينفى مناعسه بنفس شهمة ... ويشاهد الهيجا بجأش رابط

والموضع الآخر الذى عارض فيه دعبلا أبيات تائية قال دعبل فى مطلعها:

أتين ابن عمرو فصادفته ... مريض الخلائق ملتاثها

فعرضها ابن الرومى وزاد عليها من أبيات:

قواف أبى الوغد أبريزها ... فأخرجت للوغد أخبائها

أوابد قد أخنست قبله ... كهول الرجال وأحداثها

. . . . . .

ولا جرم لى أن أساءت جنا ... ة مزرعة كان حراثها

ونشأ ابن الرومى ودعبل كذلك شاعر واسع الشهرة جذاب السيرة لغرابة أخلاقه ومخاطرته وتطويفه فى الآفاق، مستحسن الشعر بين من يؤثرون الفحولة اللغوية، مفضل على المحدثين من طبقته كما قال البحترى وكان يتعصب له "دعبل بن على أشعر عندى من مسلم بن الوليد، لأن كلام دعبل

أدخل فى كلام العرب من كلام مسلم ومذهبه أشبه بمذاهبهم" . وكان دعبل فيما عدا ذلك متشيعًا لآل على غاليًا فى تشيعه فجذب ذلك كله نفس ابن الرومى الفتى نحوه وحبب إليه محاكاته ومجاراته، وربما كانت الرغبة فى مجاراته إحدى دواعيه إلى الهجاء.

ومات دعبل وابن الرومى فى الخامسة والعشرين ولا نعلم أنهما تعارفا أو كان بينهما لقاء.

هذان هما الشاعران اللذان عاصرا ابن الرومى وكان لهما أثر يذكر فى تكوينه. أما الآخرون فالثابت أنه كان على معرفة وصحبة مع اثنين منهما وهما البحترى وأبو عثمان الناجم. عرف البحترى فى بيت الناجم، وكان هذا صديقًا له بقى على صداقته إلى يوم وفاته، ورواية يحفظ شعره وأخباره ويجرى على طريقته فى بعض تشبيهاته - فسأله البحترى أن يعرفه إلى ابن الرومى ففعل وجرت بين الشاعرين صحبة غير طويلة ولا وثيقة لأن البحترى كان يدل على ابن الرومى بمكانة من الخلفاء والأمراء، وكان ابن الرومى لا يطيق الصبر على ذلك فهجاه وعاب شعره واتهمه بالسرقة، فمن قوله فيه"

قبحًا لأشياء يأتى البحترى بها ... من شعره الغث بعد الكد والتعب
كأنها حين يصغى السامعون لها ... ممن يميز بين النبع والغرب
رقى العقارب أو هدر البناة إذا ... أضحوا على سعف الجدران فى صخب
وقد يجىء بخلط فالنحاس له ... وللأوائل ما فيه من الذهب
. . . . . .
عبد بغير على الموتى فيسلبهم ... حر الكلام بجيش غير ذى لجب
ما أن يزال تراه لابسًا حللا ... أسلاب قوم مضوا فى سالف الحقب

ثم عاد يذكره أيام رضاه ومودته والفرق بين مسالمته وحربه ويقول له بعد أقذاع كثير:

يا بحـتـرى لقـد أقـبلـت منقلبًـا	يوم اكـتسـبت هجائى شـر منقلب

. . . .	. . . .

قد كنت تعرف منى فى الرضى رجلا	حلو المذاقة، فاعرفنى لدى الغضب

تعرف فـتى فيه طورًا مـجتنى سلع	للمـجـتنين وطـورًا مـجتنى رطب

ونظن أن المنافسة بـينهما لم تكن وحدها سبب هـذا الهجاء، وإنما آنس ابن الرومى إغـراء من العلاء ابـن صاعـد بالبحـتـرى، لأنه خاطبـه فى هذه القصيدة بما يظهر منه أن العلاء كان يستضعف هجاء الشعراء للبحترى ويبحث عمن يشد عليه ويفحمه كما يؤخذ من هذا البيت:

أراك لم ترض ما أهدى له نفر	من شتم أم لئيم خيمها واب

فأرضى ابن الرومـى نفسه وأرضى العـلاء بهجائـه، وكان رد البحـترى عليه ما علم القراء من إهدائه تخت المتـاع وكيس الدراهم وإبلاغه "أن الهدية ليست تقية منه ولكن رقة عيله لأنه لم يحـمله على ما فعل إلا الفقر والحسد المفرط"

عرف ابن الرومى البحـترى وابن الرومى شاعر ناضج مشـهور بالافتنان فى المعـانى والقدرة على الهـجاء وكـان البـحتـرى يحب مجـاراته فى بعض قصـائده. فقـال له فى أول لقاء بينهـما أنه عزم على أن يعـمل قصـيدة وزن قصيدته الطائية فى الهجاء فنهاه ابن الرومى عن ذاك لأنه ليس من عمله. فإذا كان بينهـما اقـتباس، أو مـعارضة فـالبحـترى هو المقـتبس وهو الراغب فى المعارضـة. على أننا لا نحاله اسـتفاد من ابن الرومى شـيئًا يزيده فى مـذهبه الذى نبغ فيه لأنهما نمطان متباينان، ولكل منهما اعتداد بنفسه يكفيه ويغنيه.

أما على بن الجهم "المتوفى سنة ٢٤٩"، فقد كان بينه وبين ابن الرومى برزخ واسع من اختلاف المذهب فى الدين والشعـر. فابن الرومى متشيع وابن الجهم ناصـب يذم عليًا وآله "ولا يلتـقى الشيـعى والناصب" كمـا يقول ابن

الرومى . . وكـان ابن الجهم شديد الـنقمة على المـعتزلة وعلى "أهـل العدل والتوحيـد" منهم خاصة يهجـوهم ويدس لهم ويقول فى زعيمـهم أحمد ابن أبى داود:

ما هذه البدع التى سميتها بالجهل منك العدل والتوحيدا

وابن الرومى كما مر بك من هذه الجماعـة. فمذهبه فى الدين ينفره من ابن الجهم ولا يرغبه فى مجاراته، ولو تشابها فيما عدا ذلك من المزاج والنزعة لقد يهون هذا الفارق ويسهل على ابن الرومى الأغضاء عنه وهو ناشئ يتلمس القدوة ويخـطو فى سبيل الشـهرة. ولكنك تقـرأ شعـر ابن الجهم فى فـخره ومزاجه، فيخيل إليك أنك تقرأ كلام جندى يتنفج أو يعربد . . لخلوه من كل عاطفة غير عواطف الجند الذين يقضـون أوقاتهم بين الفخر والضجيج واللهو والسكر، وليس بين هذه الـطبيـعة وطبـيعـة ابن الرومى مـسرب للقـدوة أو للمقاربة فى الميل والإحـساس، ولا كان فى شعر ابن الجهم شىء يشـعر مثل ابن الرومى أنه يقتـدى به ويحتـاج إلى مجازاته، فـيميل به هذا الشـعور إلى الإعجاب بالشاعر الذى أبعده عنه المذهب والمزاج.

وقد ولد ابن المعتز فى سنة سبع وأربعين ومائتين، فلما أيفع وبلغ السن التى يقول فيها الشعر كـان ابن الرومى قد جاوز الأربعين أو ضرب فى حدود الخمسين، ولما نبغ واشتهـر له كلام يروى فى مجالس الأدباء كان ابن الرومى قد أوفى على الستـين وفرغ من التعليم والاقتبـاس. ولو انعكس الأمر وكان ابن المعتـز هو السابق فى الميـلاد لما أخذ منه ابن الرومى شـيئًا أو لكان أفـسد سليقته بالأخذ عنه، لأن ابن المعتز إنما امتاز بين شعراء بغداد فى عصره بمزاياه الثلاث، وهى البديع والتوشيح والتشـبيه بالتحف والنفائس، وابن الرومى لم يرزق نصيبًا معدودًا من هذه المزايا ولم يكن قط من أصحاب البديع وأصحاب التوشيح أو أصحاب التشبيهات التى تدور عـلى الزخرف وتستفيد نفاستها من نفاسة المشبهات.

ويجوز أن الشاعرين لم يتعارفا ولم يتلاقيا فى مجلس، لأن ابن الرومى كان قليل الغشيان جدًا للمجالس التى كان يحضرها الخلفاء وولاة العهود. فضلا عن تفاوت السن والخطة، وفضلا عن سبب آخر قد يكون من موانع اللقاء بينهما، وهو أن ابن الرومى هجا المعتز ومدح المستعين حين تنازعا الخلافة وتقاتلا عليها. وكان ابن الرومى من حزب المستعين لأن بغداد كانت معه وهى وطن ابن الرومى، ومحمد بن عبد الله بن طاهر كان ينصر المستعين وهو يومئذ أكبر ممدوحيه. ونحن نذكر هذا السبب الأخير للإحاطة به ولا نعيره كبير التفات، لأن ابن المعتز كان طفلا رضيعًا حين تقابل أبوه وعمه، ولا يحتمل كثيرًا أنه وعى بعد ذلك كل ما قاله ابن الرومى فى تلك الأيام.

ممدوحوه

لابن الرومى ممدوحوه كثيرون يزيدون على الأربعين، يطول بنا البحث ولا ننتهى إلى غرض يفيدنا فيما نحن فيه لو أننا أجملنا تواريخهم إجمالا سريعًا بله التفصيل والأنعام، ولو كان للمدح فى زمن ابن الروى بواعث نفسية غير طلب العطاء لوجب أن نعنى بتراجم الأشخاص الذين حركوا فى نفس الشاعر تلك البواعث واستحقوا منه أكباره وثناءه، لأن العناية بتراجمهم فى هذه الحالة عناية بالشاعر نفسه وبواعث نظمه ومعايير وصفه وثنائه، ولككن الشعراء كانوا يمدحون ولا يقصدون من المدح إلا الإرضاء والتفنن فى معانى التعظيم، فمن العبث أن نحصى هنا تراجم لا تزيدنا علمًا بالشاعر وليس العلم بها لذاتها مقصورًا فى هذا المقام، وحسبنا أن نلم بتاريخ الأسرتين اللتين خصهما الشاعر بمعظم مدائحه وكانت له صلة طويلة بهما وعلاقات مذكورة فى ترجمة حياته، وهما أسرة آل طاهر وأسرة آل وهب، وكلاهما من أكبر الأسر التى عرفت فى تاريخ الوزارة والقيادة فى الدولة العباسية.

قال طاهر أسرة قديمة تنتسب إلى أمراء الفرس الأولين ويذكر منها فى

عالم الحرب والأدب والنجدة أفراد كثيرون وأول من نبغ منها واشتهر فى عهد بنى العباس طاهر بن الحسين بن مصعب بن رزيق بن ماهان، أسلم جده رزيق على يد عبيد الله طلحة الطلحات الخزاعى وإلى سجستان فنسب إليه ولقب بالخزاعى لهذا السبب لا لانتمائه إلى قبيلة خزاعة من جهة النسب.

وقد ولد طاهر بقرية بوشنج من أعمال "مرو" سنة تسع وخمسين ومائة حيث كان جده مصعب واليًا يتولى أعمال مرو مع أعمال هراة. ثم كان الخلاف بين الأسين والمأمون فأبلى طاهر فى خدمة المأمون - الفارسى آلام - أحسن بلاء وأخلص له ونصح فى ولائه وتوطيد ملكه، فولاه خراسان وأطلق يده فيها فأصبحت ودولة طاهرية طاهرية فى حكومتها لا تربطها ببغداد إلا خطبة المنبر، وقيل أن طاهر أقطع الدعاء للخليفة يومًا فسمه خادم معه كان موكلا به من قبل المأمون فأصبح ميتًا.

وكانت لآل طاهر مع ولاية الشرطة فى بغداد وهى من الولايات النافعة لذوى النفوذ، فاجتمعت لهم أسباب القوة بين العاصمة وذلك الإقليم الخطير الشأن فى حياة الدولة العباسية.

وولد لطاهر ابنه عبد الله فنشأ فى رعاية المأمون نشأة فاضلة وشابه أباه فى النجدة والإقدام وبذه فى الأدب والمروءة. تولى مصر وأعطاه المأمون مال خراجها وضياعها لسنة، فوهبه كله وفرقه فى الناس ورجع صفرًا من ذلك فغاظ المأمون فعله فدخل إليه يوم مقدمه فأنشده أبياتًا قالها فى هذا المعنى وهى:

نفسى فداؤك والأعناق خاضعة ... للنائبات أبيًا غير مهتضم

إليك أقبلت من أرض أقمت بها ... حولين بعدك فى شوق وفى ألم

أقفوا مساعيك اللاتى خصصت بها ... حذو الشراك على مثل من الأدم

فكان فضلى فيها أننى تبع ... لما سنت من الأنغام والنعم

ولو وكلت إلى نفسى عييت بها لكن بدأت فلم أعجز ولم ألم

"فضحك المأمون وقال والله ما نفست عليك مكرمة نلتها ولا أحدوثة حسن عندها ذكرك، ولكن هذا شيء إذا عودته نفسك افترقت ولم تقدر على لم شعثك وإصلاح حالك، وزال ما كان فى نفسه" . . ويقال أن البطيخ "العبدلاوى" المعروف بمصر منسوب إليه ولعله نسب إليه لأنه كان يستطيبه كما يقول ابن خلكان".

ولعبد الله شعر جزل وتلحسن جيد وهو القائل "ينبغى أن يبذل العلم لأهله ولغير أهله، فإن العلم أمنع لنفسه من أن يصير إلى غير أهله" ومن كلامه "سمن الكيس ونبل الذكر لا يجتمعان".

ومحمد بن عبد الله هذا هو الذى أدركه ابن الرومى ومدحه وظن أنه ينفس عليه شعره قال له:

أتحسدنى تجويد ريط نسجته لتلبسه؟ يا للعجب من الأمر

تذكر هداك الله أنى مادح وإنك ممدوح، فلا تعد بى قدرى

ونحسب أنه لم يظلمه، لأنه تعود أن ينظر فى شعر مادحيه نظرة الناقد المتعصب، بعث إليه حاجبه محمد ابن أبى بأنوار من بستانه وريحان وكتب معه:

قد بعثنا بطيب الريحان خير ما قد جنى من البستان

قد تخيرته لخير أمير زانه الله بالتقى والبيان

فوقع على ظهر رقعة:

عون يا عون قد ضللت عن القـ ـصد وعميت عن دقيق المعانى

حشو بيتك قد وقد فالى كم؟ قدك الله بالحسام اليمانى[1]

(١) الموشح للمرزبانى.

وكان محمد عظيم النفوذ فى الدولة تميل الخلافة حيث يميل، نصر المستعين فرجحت كفته على أخيه المعتز ودانت له بغداد وما وراءها وأوشك أن يتفرد بالملك وحده، ثم ارتاب فى المستعين فتخلى عنه فلم يجد المستعين بدًا من خلع نفسه وتمت الغلبة عيه لأخيه. وينسب إليه أنه قال لما انهزم محمد بن خالد فى بعض الوقائع بين جنود المستعين وجنود المعتز: "لا يفلح أحد من العرب إلا أن يكون معه نبى ينصره!"

ومات محمد فى ذى الحجة من سنة ثلاث وخمسين ومائتين أى حين كان ابن الرومى فى الثانية والثلاثين، قال ابن الأثير: "فى ليلة أربع عشرة من ذى الحجة انخسف القمر جميعه ومع انتهاء خسوفه مات محمد بن عبد الله بن طاهر بن الحسين وكانت علته التى مات بها قروحًا أصابته فى حلقه وراسه فذبحته وكانت تدخل فيها الفتائل، ولما اشتد مرضه كتب إلى عماله وأصحابه بتفويض ما إليه من الولاية إلى أخيه عبيد الله بن طاهر. فلما مات تنازع ابنه طاهر وأخوه عبيد الله الصلاة عليه فصلى عليه ابنه وتنازع عبيد الله وأصحاب طاهر حتى سلوا السيوف ورموا الحجارة ومالت العامة مع أصحاب طاهر وعبر عبيد الله إلى داره بالجانب الشرقى فعبر معه القواد لاستخلاف محمد فكان أوصاه على عماله. ثم وجه المعتز بعد ذلك الخلع إلى عبيد الله فأمر عبيد الله للذى أتاه بالخلع بخمسين ألف درهم".

وعبيد الله هذا كان شاعرًا كأخيه وأبيه وأكثر أفراد أسرته، وكان يقاول البحترى ويناجزه، وهو الذى نظم ديوانًا على الحرف فى شكر العلاء صاعد فعهد العلاء إلى ابن الرومى بالرد عليه، وهو القائل:

إن الأمير هو الذى يبقى أميرًا بعد عزله
أن زال سلطان الولا ية لم يزل سلطان فضله

وكان كأخيه محمد فى نقد الشعر ولا سيما إذا مدح به غيره، فهو الذى سمى قصيدة ابن الرومى النونية فى مدح إسماعيل بن بليل بدار البطيخ!

لكثرة ما ذكر فيها من أسماء الفاكهة، فظرف فى النكتة وإن لم ينصف فى نقد القصيدة.

وقال ابن خلكان فى ترجمته: " . . . كان عبيد الله المذكور أميراً ولى الشرطة ببغداد خلافة عن أخيه محمد بن عبد الله ثم استقل بها بعد موت أخيه، وكان سيداً وإليه انتهت رئاسة أهله، وهو آخر من مات منهم رئيساً، وله من الكتب المصنفة كتاب الإشارة فى أخبار الشعراء وكتاب رسالة فى السياسة الملوكية وكتاب مراسلاته لعبد الله بن المعتز وكتاب البراعة والفصاحة وغير ذلك، وحدث عن الزبير بن بكار وغيره، وكان مترسلا شاعراً لطيفًا حسن المقاصد جيد السبك رقيق الحاشية، ومن شعره ما ذكره ابن رشيق فى كتاب العمدة فى باب الاستطراد فقال: ومن الاستطراد نوع يسمى الإدماج، ونحو ذلك قول عبيد الله بن عبد الله بن طاهر لعبيد الله بن سليمان بن وهب حين وزر للمعتضد:

أبى دهرنا إسعافًا فى نفوسنا ... واسعفنا فيمن نحب ونكرم

فقلت له نعماك فيهم اتهما ... ودع أمرنا، أن المهم المقدم

" . . وله ديوان شعر، ونقتصر من نظمه على هذا القدر، وكانت ولادته سنة ثلاث وعشرين ومائتين وكانت وفاته ليلة السبت لاثنتى عشرة ليلة خلت من شوال سنة ثلثمائة ببغداد . . . " .

ولعبيد الله أخ يسمى سليمان هو الذى هجاه ابن الرومى لأنه أخلف رجاءه فى رد داره. وكانت بينه وبين عبيد الله قطيعة وملاحاة شديدة ثم اصطلحا فخلد ابن الرومى هذا الصلح فى قصيدة دالية اقتبسنا منها فيما تقدم بعض الأبيات . .

وانتهت إلى عبيد الله رئاسة قومه كما قال ابن خلكان، إلا أن دولتهم فى خراسان ذهبت منهم فى أيامه واستولى عليها فى سنة تسع وخمسين

ومائتين ذلك المخاطر الجرئ يعقوب بن الليث، الملقب بالصفار من الصفر، لأنه كان فى صباه تاجرًا فقيرًا يعمل فى النحاس، واقتصرت ولاية عبيد الله وسطوة قومه على الشرطة فى بغداد فكان هذا أول بوادر الزوال فى ذلك البيت المجيد، ولحق ابن الرومى من ذلك ما لابد أن يلحقه منه، فضلا عن حسبانه عليه من عثرات جده ودلائل شؤمه!

***

أما أبناء وهب فكانوا أهل كتابة لا شأن لهم بالحرب وقيادة الجيوش، جاء فى الفخرى أنهم كانوا "من قرية من أعمال أواسط وكانوا نصارى ثم أسلموا".

وعملوا فى الكتابة من مبدأ الدولة الأموية ثم حظوا عند العباسيين فاشتهر منهم اثنان هما الحسن بن وهب بن سعيد وأخوه سليمان.

وكان الحسن كاتبًا شاعرًا ولاه محمد بن عبد الملك الزيات ديوان الرسائل ومدحه أبو تمام فولاه فولاه البريد فى الموصل. وكانت بينه وبين أبى تمام صداقة فلما مات هذا رثاه بقصيدة يقول منها:

فلن تراب ذاك القبر يحوى ... حبيبًا كان يدعى لى حبيبا
لسنا شاعرًا فطنًا أديبًا ... أصيل الرأى فى الجلى أريبا
إذا شاهدته رواك فيما ... يسرك رقة منه وطيبا
أبا تمام الطائى أنا ... لقينا بعدك العجب العجابا
فقدنا منك قرمًا لا نرانا ... تصيب له مدى الدنيا ضريبا

ولم يزل الحسن مقربًا مجدودًا حتى نكبه المتوكل مع ابن الزيات فى سنة ثلاث وثلاثين ومائتين.

وأخوه سليمان كتب للمأمون وهو فى الرابعة عشرة. حدث ابنه عبيد

الله عنه أنه قال: "كان مبدأ سعادتى أنى كنت - وأنا صبى - بين يدى محمد بن تزداد وزير المأمون. وكنا جماعة من الصبيان بين يديه إذا راح الليل إلى داره بات واحد منا فى دار المأمون بالنوبة، لمهم عساه يعرض فى الليل. وكانت ليلة نوبتى فخرج خادم وقال: ها هنا أحد من نواب محمد بن يزداد؟ فقال الحجاب له نعم! ها هو ذا، فأدخلنى إلى المأمون فقال لى: اعمل نسخة فى المعنى الفلانى، ووسع بين سطورها وأحضرها لأصلح منها ما أريد إصلاحه. فقال: فخرجت سريعًا وكتبت الكتاب بغير نسخة وبيضته وأحضرته إليه. فلما رآنى قال: كتبت النسخة؟ فقلت: بل كتبت الكتاب. فقال: بيضته! قلت نعم، فزاد فى نظرة إلى كالمتعجب منى، فلما قرأه تبينت الاستحسان على وجهه ورفع رأسه إلى، وقال: ما أحسن ما كتبت يا صبى! ولكن أريد أن تقدم هذا السطر وتؤخر هذا السطر، وخط عليهما بقلمه، فأخذت التاب وخرجت وجلست ناحية ثم محوت السطرين وعملت ما أراد وجئته بالكتاب، وكان قد ظن أنى أبطله وأكتب غيره، فلما قرأه لم يعرف مبدأ المحو فاستحسنه وقال لى: يا صبى! لا أدرى من أى شىء أعجب! أمن جودة محوك أم من سرعة فهمك أم من حسن حظك أم من سرعتك، بارك الله فيك! فقبلت يده وخرجت، وكان ذلك أول علو منزلتى وصار المأمون لا يجرى مهم إلا قال: "هاتوا سليمان بن وهب".

واستورزه المهتدى "ولقبه الوزير حقًا لأن من كان قبله كان غير مستحق للوزارة ولا مستقل بها"[1]. استكتبه يومًا عشرة كتب مختلفة إلى جماعة من العمال، فلما وضعت الكتب بين يديه قال له وقد قرأها: أحسنت يا سليمان، ونعم الرجل أنت لولا المعجل والمؤجل! وذاك أن سليمان كان إذا ولى عاملا أخذ منه مالا معجلا وأجل مالا إلى أن يتسلم عمله . . ونكبه الواثق وحبسه فقال وفى هذا الشعر غناء:

---

(١) الأغانى.

أوائب الدهر آدبتني وإنما يوعظ الأديب
قد ذقت حلواً وذقت مراً كذاك عيش الفتى ضروب
ما مر ربؤس ولا نعيم إلا ولى فيهما نصيب

ثم خرج من الحسن ليلة مات الواثق، ولكنه كان مطموعًا فيه لكثرة ماله واشتهاره بالرشوة فقبض عليه الموفق ومات فى حبسه سنة اثنتين وسبعين ومائتين، وقيل سنة إحدى وسبعين .. ولما قبض الموفق عليه وعلى ابنه عبيد الله تذاكر جماعة أنه إنما استكبهما ليقف منهما على دخائل موسى بن بغا وودائعه فلما استقصى ذلك نكبهما لكثرة مالهما فقال ابن الرومى وكان حاضراً:

ألم تر أن المال يتلف ربه إذا جم آتيه وسد طريقه
ومن جاور الماء الغزير مجمه وسد مغيكن الماء فهو غريقه[1]

وسليمان بن وهب هو أبو عبيد الله وجد القاسم، وكلاهما وزر للمعتضد وتلقى مدائح ابن الرومى الكثيرة، ولا سيما القاسم، فإنه كان صاحب القسط الأوفر من جميع مدحه.

وكانت أول ولاية عبيد الله للوزارة فى عهد المعتضد ثم بويع المعتضد سنة تسع وسبعين ومائتين فأقره على وزارته ولبث فيها إلى أن مات سنة ثمان وثمانين ومائتين وكان كاتبًا حاذقًا وسائسًا حصيفًا وفيه يقول الشاعر:

إذا أبو القاسم جادت يداه لنا لم يحمد إلا جودان البحر والمطر
وإن مضى رأيه أو حد عزمته تأخر الماضيان، السيف والقدر
وإن أضاءت لنا أضواء غرته تضاءل النيران الشمس والقمر
من لم يبت حذراً من حد صولته لم يدر ما المزعجان الخوف والحذر

---
(١) الأغانى.

ينال بالظـن مـا يعـيى العـيـان به والشـاهـدان عليـه العـين والأثر

ويروى أنه لما مات عزم المعتضد على أن يستأصل شأفه أولاده ويستصفى أموالهم، فحضر القاسم ابنه واستعان ببدر المعتضدى وكتب خطابًا بألفى ألف دينار فاستوزره المعتضد[1].

قال صاحب الفـخرى "كان القاسم بن عبـيد الله من دهاة العالم ومن أفاضل الوزراء، وكان شهـمًا فاضلا لبيبًا مـحصلا كريمًا مهيبًـا جبارًا، وكان يطعن فى دينه . . ".

وقال ابن خلكان: "كان الوزير المذكور عظيم الهيبة شديد الإقدام سفاكًا للدماء، وكان الكبير والصغير منه على وجل لا يعرف أحد من أرباب الأموال إلا نقمه. وتوفى سنة إحدى وتسعين ومائـتين فى خلافة المكتفى وعمره نيف وثلاثون سنة. وفى ذلك يقول عبد الله بن الحسن بن سعد:

شـربنا عـيشـه مـات الوزير سـرورًا وتشـرب فى ثالثـه
فـلا رحـم الـلـه العـظـا م ولا بـارك الـلـه فـى وراثـه

وابن خلكان قد أخذ هذا الوصف من مـروج الذهب للمسعودى، وفى هذا الكتاب أن القـاسم قتل عبد الواحـد عم الخليفة المتكفى والخليفـة يجهل ذلك ولا يريده. وكان القـاسم يغريه به "فوكل به من يراعى خيـره وما يظهر من قوله إذا أخذ الشراب منه فسمع منه وقد طرب وهو ينشد شعر العتابى:

تلـوم على ترك الـغنى بـأهليـة طوى الدهر عنهـا كل طرف وتالد

إلى أن يقول:

ذريتى تجـئـنى مـيـتـتى مطـمـئنة ولـم أتجـشـم هول تلـك الموارد
فـإن نفـيسـات الأمـور مـشـوبة بمسـتـودعـات فى بطون الأسـاود

---

(١) الفخر.

وإن الذى يسمو إلى درك العلا ملقى بأسباب العلا والمكابد

فقال له بعض ندمائه وقد أخذ منه الشراب: يا سيدى أين أنت مما تمثل به يزيد ابن المهلب:

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد حياة لنفسى مثل أن أتقدما

فقال له بعض ندمائه وقد أخذ منه الشراب: يا سيدى ابن المهلب وأخطأ قائل هذا البيت وأصاب أبو فرعون التميمى حيث يقول:

وما بى شىء فى الوغى غير أننى أخاف على فخارتى أن تحكما

ولو كنت مبتاعًا من السوق مثلها لدى الروع ما باليت أن أتقدما

فلما انتهى ذلك إلى المكتفى ضحك وقال: قد قلت للقاسم ليس عمى عبد الواحد ممن تسمو همته إليها . . أطلقوا لعمى كذا وكذا. فلم يزل القاسم بعبد الواحد حتى قتله.

وكان القاسم مكروهًا على خلاف أخيه الحسن الذى كان يحبه الناس ويحسنون الظن به. فلما مات الحسن قال أبو الحارث النوفلى:

قل لأبى القاسم المرزا قابلك الدهر بالعجائب

مات لك ابن وكان زينًا وعاش ذو الشين والمعايب

حياة هذا كموت هذا فلست تخلو من المصائب

قال أبو بكر الصولى النديم: "وقد رأيت أبا الحارث هذا وكان رجلا صدوقًا".

ونظم آخر فى هذا المعنى فقال:

قل لأبى القاسم المرزا وناد يا ذا المصيبتين

مات لك ابن وكان زينًا وعاش شون وأى شين

حياة هذا كموت هذا فالطم على الرأس باليدين

ولكن عبيد الله أباهما كان على رأى يخالف رأى الناس فى ولديه، فكان يقدم القاسم ويهمل الحسن، حتى راجعه فى ذلك ابن الرومى بقصيدة سبقت الإشارة إليها، ولعله رأى من دهاء ابنه القاسم وفدره أنه أصلح للحكم فى ذلك الزمان، وعلم أن الخلق الكريم أداة لا تنفع فى هذا الغرض فأخر ابنه الحسن عن منزلة أخيه.

والقاسم هذا هو الذى أجمعت كتب التاريخ على أنه قتل ابن الرومى بالسم لأنه أشفق من فلتات لسانه.

وفاته

يقول ابن خلكان فى تاريخ وفاة ابن الرومى: "توفى يوم الأربعاء لليتين بقيتا من جمادى الأول سنة ثلاث وثمانين وقيل أربع وثمانين وقيل ست وسبعين ومائتين ودفن فى مقبرة باب البستان".

فأى هذه التواريخ هو الصحيح؟

إن الذين جاءوا بعد ابن خلكان تابعوه فى هذا الشك الذى لا مسوغ له اعتمادًا على روايته بغير بحث فى شعر الشاعر ولا فى كتب المؤرخين الذين سبقوا ابن خلكان. ولا مسوغ لهذا الشك كما قلنا لأن ابن الرومى أثبت لنا أنه بلغ الستين وعاش إلى ما بعد سنة ثمانين إذ يقول:

طربت ولم تطرب على حين مطرب وكيف التصابى بابن ستين أشيب

فهو لم يمت فى سنة ست وسبعين على التحقيق، ولا يظن أن الستين هنا تقريبية لضرورة الشعر وأنها قد تكون خمسًا وخمسين أو ستًا وخمسين، فإنه ذكر الخمس والخمسين فى موضع آخر حيث قال:

كبرت وفى خمس وخمسين مكبر وشبت فألحاظ المها عنك نفسر

وليس من المعروف عنه أنه كان يعيى بنظم ما يريد.

ولو راجع ابن خلكان كتاب مروج الذهب للمسعودى لعرف منه أن ابن الرومى كان حيًا بعد ست وسبعين، فلا محل للقول بموته فى تلك السنة. فقد جاء فى تاريخ المعتضد من ذلك الكتاب أن قطر الندى بنت خمارويه وصلت إلى مدينة السلام مع ابن الخصاص فى ذى الحجة[1] فى سنة إحدى وثمانين ومائتين، ففى ذلك يقول على بن العباس الرومى:

يا سيد العرب الذى زفت له باليمن والبركات سيدة العجم

إلى آخر الأبيات، وهذا فضلا عن مقطزعات أخرى نظمها الشاعر فى العرس الذى احتفل به الخليفة سنة اثنتين وثمانين.

فمن المحقق إذن أن ابن الرومى تجاوز سنة ست وسبعين، ولم يبق لنا إلا أن نبحث فى السنتين الأخريين أى سنتى ثلاث وأربع وثمانين.

فعندنا تاريخ اليوم والشهر من أولاهما وليس عندنا مثل ذلك من الثانية، وهذا مما يرجح وفاته فى سنة ثلاث وثمانين دون أربع وثمانين.

ويقوى هذا الترجيح أن مضاهاة التواريخ تثبت لنا أن جمادى الأخرى من سنة ثلاث وثمانين بدأت يوم جمعة فيكون يوم الأربعاء قد جاء لليتين بقيتا من جمادى الأولى فى تلك السنة كما جاء فى تاريخ الوفاة.

وقد ضاهينا هذا اليوم على التاريخ الإفرنجى فوجدناه يوافق الرابع عشر من شهر يونيو، أى يوافق إبان الصيف فى العراق، وابن الرومى مات فى الصيف كما يؤخذ من قول الناجم إنه دخل عليه فى مرضه الذى مات فيه وبين يديه ماء مثلوج، فيجوز لنا على هذا أن نجزم بأن أصح التواريخ هو التاريخ الأول وهو "يوم الأربعاء لليلتين بقيتا م جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين".

والأقوال بعد ذلك مجمعة على موت ابن الرومى بالسم، وأن الذى سمه هو القاسم بن عبيد الله أو أبوه.

(١) الطبرى يقول أن دخولها بغداد كان لليتين خلتا من المحرم سنة ٢٨٢.

ولكن الروايات فى هذا الخبر لا تخلو من ضعف واضطراب، فالرواية التى أوردها ابن خلكان تقول: أن الوزير أبا الحسن القاسم بن عبيد الله بن سليمان ابن وهب وزير الإمام المعتضد كان يخاف من هجوه وفلتات لسانه بالفحش فدس عليه ابن فراش فأطعمه خشكنانجة مسمومة وهو فى مجلسه فلما أكلها أحس بالسم وهم بالخروج، فقال له الوزير: إلى أين تذهب فقال إلى الموضع الذى بعثتنى إليه، فقال له: سلم على والدى! فقال له: ما طريقى على النار . . .

وضعف هذه الرواية ظاهر. لأن عبيد الله بن سليمان مات فى سنة ثمان وثمانين[1] أى بعد آخر تاريخ فرض لموت ابن الرومى بأربع سنوات، فكان حيًا عند وفاة الشاعر ولا معنى لأن يقول القاسم له سلم على والدى ووالده بقيد الحياة.

والرواية التى أوردها الشريف المرتضى فى أماليه أصح من هذه الوجهة، لأنها تقول أن عبيد الله كان حيًا عند موت ابن الرومى وأنه هو الذى أوعز بقتله، ولكنها تقول أيضًا أنه قد اتصل "بعبيد الله بن سليمان بن وهب أمر على بن العباس الرومى وكثرة مجالسته لأبى الحسين القاسم. فقال لأبى الحسين: قد أحببت أن أرى ابن روميك هذا. فدخل يومًا عبيد الله إلى أبى الحسين وابن الرومى عنده فاستنشده من شعره فأنشده وخاطبه فرآه مضطرب العقل جاهلا فقال لأبى الحسين بينه وبينه: إن لسان هذا أطول من عقله، ومن هذه صورته لا تؤمن عقاريه عند أول عتب ولا يفكر فى عاقبته، فأخرجه عنك. فقال: أخاف حينئذ أن يعلن ما يكتمه فى دولتنا ويذيعه فى تمكننا، فقال يا بنى! أنى لم أرد بإخراجك له طرده. فاستعمل فيه بيت أبى حية النيمرى.

فقلن لها سرًا فديناك لا يرح سليمًا، وإلا تقتليه فلممى

(١) راجع الفخرى.

فحدث القاسم ابن فراس بما جرى وكان أعدى الناس لابن الرومى وقد هجاه بأهاج قبيحة، فقال له الوزير أعـزه الله أشار بأن يغتال حتى يستراح منه وأنا أكفـيك ذلك قسـمه فى الخـشكنانج فمـات . . قال البـاقطانى: والناس يقولون ما قتله ابن فراس وإنما قتله عبيد الله.

وضعف هذه الرواية ظاهر كذلك. لأن عبيد الله كان يعرف ابن الرومى سنوات وقد مدحه ابن الرومى وتردد عليه وتشفع لديه بين والديه، فلا حاجة به إلى أن يطلب رؤيته قبل موته ليختبره كما جاء فى هذه الرواية. أما الأخبار الأخرى المنثورة فى الكتب فهى مزيج مرتبك من هاتين الروايتين.

ويصعب علينا أن نستخلص الحـقيقة من هذا الخلف والاضطراب، فإذا قلنا أن عبيد الله هو القاتل كمـا نقل الباقطانى فيجوز على هذا الزعم أنه هو الذى قـال له: سلم على والدى وليس ولده القـاسم، فيـنتفى بذلك مـوضع الضعف فى الرواية الأولى، ولكننا ننفيه بغفرض لا يجوز الاعتماد عليه.

وإذا أردنا أن نمزد بين الروايـتـين ونسـقط منهـمـا مـا يجب إسـقـاطه فالخلاصة منهما أن عبيـد الله خاف هجاء ابن الرومى فأوعز إلى ابنه أن يسمه لأنه كـان أقرب إلى القـاسم وابن الرومى وإنما هو حـديث غلبت فيـه فكاهة القصة على صدق التاريخ.

بين هذه الشبهات المتـضاربة شبهة تعرض للذهن ولا يجـوز إغفالها فى هذا المقـام وهى تبـيح لنا أن نسأل: ألا يـحتـمل أن يكون حـديث السم كله خرافة مخترعة لا أصل لها وأن ابن الرومى مات ميتـة طبيعية تشتبه أعراضها بأعراض التـسمم المعروفـة فى زمانه؟ فمن كـلام الناجم الذى زاره فى مرض وفاته نعلم أنه كان يسكو من إلحاح البول فلما لاحظ الناجم ذلك قال:

غدًا ينقطع البول ويأتى الهول والغول

وإنه كان قد أعـد ماء مثلوجًا لأنه "قلما يمـوت إنسان إلا وهو ظمآن" وكان يقول فيما روته الأمالى وهو يشرب الماء ولا يروى:

وأراه زائداً فى حرقتى فكان الماء للنار خطب

والظمأ وإلحاح البول عرضان من أعراض "مرض السكر" وهو مرض يحدث لصاحبه التسمم ولا سيما بعد أكل الحلوى والإفراط فيها، وابن الرومى لم تكن تعوزه أسباب الإصابة به لأنه كان منهومًا بالحلوى والأطعمة الثقيلة، مستسلمًا للشهوات مسرفًا فى الشراب مع ضعف أعصابه واعتلال جسمه، فمن الجائز أنه أصيب به فاشتد عليه فى شيخوخته وقصده الطبيب وفسد الجرح كما جاء فى رواية زهر الآداب فأودى ذلك بحياته. ويسهل فى هذه الحالة أن يشيع حديث السم ولواحقه لما كان يعترى ابن الرومى من كثرة التوهم أو لما كان مشهورًا عن القاسم من سوء الطوية والضراوة بالغدر والفتك بحيث لا يكبر عليه قتل شاعر هجاه، فإذا كان الموت قد حدث بعد وليمة فى بيت القاسم فهذا مما يؤكد التهمة ويصعب على الناس أن يعللوه بغير السم والمكيدة، وإن كان الطعام وحده كافيًا للقضاء على رجل جاوز الستين فى شيخوخته متهدمة مهملة طالت إصابته بمرض دفين لم يكن علاجه ميسورًا فى أيامه.

هذه شبهة تعرض للذهن بين مختلف الشبهات، وكل قيمتها عندنا أنها مما لا يصح إغفاله فى تحقيق وفاة الشاعر. فهى احتمال كل ما فيه أنه غير مستحيل.

أما أن القاسم كان أهلا لأن يغدر بابن الرومى وأن ابن الرومى كان عرضة لغضب ذلك الوزير الفاتك المغتال فهو احتمال جد قريب، فالقاسم جرىء مستخف بالدماء وابن الرومى قانط سريع الغضب. وليس أيسر من أن ينسى القاسم رجلا كابن الرومى حين أقبلت الدولة عليه وعلى أبيه وآله وتبدلت مجالسهم الأولى وأخذوا فى شأن من الصولة والأبهة غير شأنهم الذى كانوا فيه، وليس أيسر من أن يطمع ابن الرومى فى عمل أو مرتب أو مكافأة تغنيه حين أقبلت الدولة على ممدوحيه وأصحابه بالأمس فى أيام

التطلع والانتظار، ومن هنا يبدأ الغضب فاللوم فالوشاية فالمبالغة فى الجفاء فالهجاء من الشاعر فالوعيد من الأمير الذى ليس بين وعيده وإنجازه عائق من خوف ولا محاسبة ضمير. وسلسلة القصائد التى تشفع بها ابن الرومى وسأل العمل واعتذر من أحاديث الوشاة سلسلة طويلة يسهل ترتيبها لولا أنه لا فائدة من هذا الترتيب. فحسبنا منها أن القاسم سمع الوشايات التى تحدث بها جلساؤه ومنافسو ابن الرومى والحانقون عليه لهجائه، فأمعن فى جفائه والإعراض عن توسلاته وشفاعاته، فلم يفلح ابن الرومى فى استعطافه بمثل قوله:

بلغ البغاء على حيث أرادوا ... والله كائدهم بما قد كادوا

وهو الشهيد على أنى لم أقل ... بعض الذى قد أبدأوا وأعادوا

وهب السعاة أتوا بحق واضح ... أين الكرام؟ أبدلوا أم بادوا

. . . . . .

عفو الملوك عن الهجاء مدائح ... مدحوا نفوسهم بها فأجادوا

ولم يفلح فى استعطافه بأضعاف هذا الكلام وهو كثير.

وحسبنا منها أن القاسم كان يتوعد ابن الرومى بالقتل فقال الشاعر يقابل بين ما وشى به السعاة إليه وما وشوا به إلى القاسم:

تحدثت الإملاء أنك حابسى ... على غير إجرام وأنك مغتالى

وما قيل إملاء الرجال وقالهم ... بأسهل من قيلى عليك ومن قالى

ثم يستطرد إلى الترضى والاستعطاف:

أخالك لو عاينتنى حفيرتى ... بكيت عظامى الباليات وأوصالى

وسرك أن أحيا كماكنت مرة ... ببذل الفداء الجزل والثمن الغالى

فلا تجفنى حيا ولا تبك رمتى ... كمنصرف عنى يسائل إطلالى

وتكرر وعيد القاسم بالقتل فتكرر استعطاف ابن الرومى وتذكيره بسالف المودة:

أيقتلى من ليس لى منه ناصر عليه، وأعوانى عليه مكارمه
أبى ذاك أن الحكم بينى وبينه وأن علو القدر فى يخاصمه

وقد طالت السعايات وطال التوسل حتى اجتمع من ذلك ديوان غير صغير فى حجمه ولا فى معانيه وابتكاراته، وابن الرومى فى كل ذلك لا يرى من القاسم إلا:

غضيا ألح من السحاب الأسحم ورضى أعز من الغراب الأعصم

فضاق صدره وجاهره بالهجاء وأفرغ كل ما فى جعبته من قذع أخفه:

يا من إذا ما رأته عين والده بين الرجال أتقاهم بالمعاذير
أقسمت بالله أن لو كنت لى ولدا لما جعلتك إلا فى المطامير

وقال فى آل وهب عامة:

متى آل وهب يرتجى الرى حائم إذا كنتم ملاك سبل المحامد

واتهمهم فى إسلامهم لأنهم كانوا قديمًا نصارى فأسلموا فقال فيهم من هذه القصيدة:

وأحييتم دين الصليب وقمتم بتشييد "بيعات" وهدم مساجد
وأبطال ما كان الخليفة جعفر تخييره زيا لكل معاند

يشير إلى أبطالهم زى أهل الكتاب الذى أمر به الخليفة المتوكل فى أيام غلوائه ونقمته على أصحاب النحل جميعًا وقراء الفلسفة وعلم الكلام.

فليس من المنتظر بعد هذه القطيعة وهذا الهجاء أن يتورع القاسم عن قتل ابن الرومى إذا استطاعه، وهو مستطيعه كما استطاع قتل عم الخليفة بغير

جريرة ودبر لذلك تدبيره الذى لم يعلم به الخليفة إلا بعد موته، ومتى توعد القاسم بالحبس والقتل فليس هو بالذى يتردد فى إنجاز وعيده أو يعجز عنه، وليس ابن الرومى بالذى يتخذ الحيطة من مكيدة يراد بها وهو يسأل القاسم عطفًا وينخدع فى ظواهره بغير عناء.

وبقية المرحلة بعد هذا قصيرة:

ذهب ابن الرومى إلى داره وهو يتوقع الموت ويتلمس الشفاء و "لا مفر من الموت ولا من قضائه المحتوم" كما قال وغلط عليه الطبيب أو عز عليه دواؤه فكانت إصابة المقدار. فتلقاه الموت آخر الأمر كما تلقته الحياة: نفسًا يسورها القلق ويتوفز فيها الحس ولا تزال من خوف الألم فى ألم . . اطمأنت إلى القضاء المحتوم، وأبت أن تطمئن إلى آلامه وصرعاته، فاستحضرت المدية الرميضة تحاول ان تتعجل بها الموت إذا اشتدت عليها سكراته وأبطأ نزله، ولم يخش فى ذلك عقاب الدين وله عليها ذلك السلطان المرهوب، وللساعة عندها "هول دونه الهول" وبعدها حساب عسير لا شك فيه.

تلك خاتمة الترجمة التى استخرجناها من شعر ابن الرومى وعثرنا فيها بتفاصيل ودقائق لا يستخرج من شعر شاعر غيره. فكأنما انتزاعها من قبضة العدم انتزاعًا وتشبث بها كما تشبث بالحياة فغلب عليها إهمال التاريخ غلبًا . . والفضل فى ذلك لتلك الملكة الفنية التى خلقت لتحس وتعبر عما تحسه وتسجل تعبيرها فى سجل الفنون، والتى أرهفتها الأسقام والآلام حتى أصبحت وسواسًا يبالغ فى تحريه واستيفائه كما يبالغ كل وسواس فى التوكيد والتقرير.